الأستاذ الدكتور

عبد الجليل التميمي

دراسات في التاريخ العربي العثماني

1453 - 1918

منشورات

مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات

(سيرمدي)

زغوان - مارس 1994

منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات (سير مدي)

المدير المسؤول
أ. د. عبد الجليل التميمي
الاستاذ بكلية العلوم الانسانية والاجتماعية بجامعة تونس الاولى

من نشاط المركز :

انشئ هذا المركز منذ ثماني سنوات بمدينة زغوان من طرف د. عبد الجليل التميمي، الاستاذ بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية لجامعة تونس الاولى . و من أهدافه :

- إنشاء مركز معلومات تاريخية عثمانية وموريسكية وتوثيق ومعلومات وقاعدة بيانات للارشادات البيلوغرافية بالموضوعات السالفة الذكر.

- إنشاء مكتبة متخصصة في هذه الإختصاصات الحيوية من المعرفة وهي المكتبة التي قد افتتحت في مارس 1989 .

- القيام بالدراسات و البحوث و النشر في مجال الدراسات العثمانية و الموريسكية والتوثيق والمعلومات والأرشيف (راجع قائمة منشوراته اسفله ص 115-116) .

- إرساء تعاون علمي بين الباحثين العرب والاتراك والفرنسيين والإسبان وكل التخصصين الدوليين الذين يشاركوننا هذا الإختصاص .

- يضع المركز سيرمدي على ذمته الباحثين تسعة عشر شقة لإقامتهم من أجل إجراء بحوثهم.

- يشرف المركز على نشر دورتين أكاديميتين هي : المجلة التاريخية المغاربية التي بدأت صدورها منذ سنة 1974 وسوف يصدر العدد 73- 76 قريبا . و المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، وسوف يصدر العدد 9 و10 قريبا .

نظم المركز اثنا عشر مؤتمر على المستوى العربي والدولي جمعت أهم التخصصين العرب و الدوليين حول الدراسات العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات.

- تمّ تصنيف هذا الكتاب على الوحدة الاعلامية Apple Macintosh أبل ماكنتوش بسيرمدي.
أما السحب فقد تم بمطبعة بابيريس - نابل في شهر مارس 1994

الهاتف : من تونس : 02 676 446
من الخارج : 216 2676 446
الفاكس من الخارج : 216 2676 710
من تونس : 02 676 710
يطلب هذا الكتاب من العنوان التالي : سيرمدي، ص.ب 50، زغوان (1110). ج.التونسية

ISBN 9973-719-36-0 م. ت. ك. ك.

كتب للمؤلف

-- بحوث ووثائق في التاريخ المغربي، الجزائر وتونس وليبيا من 1816 الى 1871، الطبعة الاولى، الدار التونسية للنشر 1972 والطبعة الثانية، 254 ص ، تونس ، 1984.

-- نفس الكتاب باللغة الفرنسية مع اضافة عدد من الوثائق الاجنبية الجديدة :

Recherches et documents d'Histoire Maghrébine: l'Algérie, la Tunisie et la Tripolitaine (1816-1871), 333p. 1er édition, Publications de la Faculté des Sciences Humaines et Sociales de Tunis l'Universite de Tunis, 1971; 2eme édition, Tunis, 1979, 206p.

"Le Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey (1830-1837)", 303p+24 planches, Tunis, 1978, 303p.

-- موجز الدفاتر العربية والتركية بالجزائر، 196 ص ، تونس ، 1983 .

-- نفس الكتاب بالفرنسية : Sommaire des registres arabes et turcs d'Alger, Tunis, 1979.

-- الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الاندلسيين ، 185 ص ، باللغتين العربية والفرنسية، منشورات سيرمدي ، زغوان، 1989 .

-- وثيقة عن الاملاك المحبسة باسم الجامع الاعظم بمدينة الجزائر ، باللغتين العربية والفرنسية ، تونس 1980.

-- الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس وليبيا ووسط وغرب افريقيا خلال العصر الحديث ، باللغتين العربية والفرنسية ، 80 ص ، تونس 1981 .

-- كشاف المجلة التاريخية المغاربية ، 404 ص، باللغتين العربية والفرنسية، منشورات سيرمدي ، زغوان 1988.

-- دراسات في التاريخ الموريسكي الاندلسي . 172 ص، منشورات سيرمدي باللغتين العربية والفرنسية . فيفري 1993 .

-- دراسات في التاريخ العربي - العثماني ، بالعربية والفرنسية . 206 ص ، سيرمدي مرس 1994 .

رسائل دكتوراه عربها المؤلف عن اللغتين التركية والفرنسية :

- د. ارجمت كوراي : السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسية للجزائر ، 1827 - 1847 ، 110 ص ، الطبعة الاولى، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية لجامعة تونس ، تونس ، 1970 . الطبعة الثانية، تونس . 1974

- د. عبد الرحمن تشايجي، المسالة التونسية والسياسة العثمانية 1881 - 1911، منشورات المكتبة الشرقية ، تونس ، 1974 . 331 ص .

- د. لويس كاردياك ، الموريسكيون الاندلسيون والمسيحيون، المجابهة الجدلية 1492 = 1640 مع دراسة عن الموريسكيين الاندلسيين بامريكا ، 200 ص، الطبعة الاولى 1983 ، الطبعة الثانية تونس، منشورات سيرمدي - زغوان ، 1989 . 200 ص .

كشاف الدراسات

الصفحة

١ - القسم العربي

2 - القسم الفرنسي

تقديم

هذه الدراسات التي ننشرها اليوم والتي أعدت وقدمت في مؤتمرات تاريخية ، تمحورت جميعها حول بعض إشكاليات التاريخ العربي-العثماني، وهو الموضوع الذي أصبح يحظى خلال السنوات الأخيرة ، باهتمام جدي من لدن المؤسسات البحثية في الوطن العربي و تركيا . و لا شك أن هذا الإهتمام الجديد سيكون مبعث ارتياح العاملين والمؤمنين ، منذ ثلاثين سنة ، بأهمية و حيوية و دقة وتأثير هذا الموضوع على مستقبل علاقات الامتين العربية و التركية .

لقد ران صمت رهيب و معارضة شديدة في الماضي من لدن المؤسسات البحثية والجامعية في البلاد العربية و تركيا للعمل على ارساء مبادئ الحوار الهادف العلمي والاقتصادي والسياسي بين الطرفين . وقد نتج عن ذلك حتما قطيعة و تجاهل مطلق لدقة التحولات الحاصلة في كلا الساحتين العربية و التركية ، وهو ما يفسر مدى تارجح العلاقات العربية- التركية صعودا و هبوطا وفقا لنوعية القضايا و المشاكل المطروحة والتي في كثير من الاحيان قد وصلت الى طريق مسدود ، نتيجة عدم اقرار لغة الحوار و التفاهم والتشاور بينهما منذ أمد بعيد. وزاد الوضع سوء ، أن الخلفية التاريخية للمسؤولين العرب والاتراك والصحفيين ورجال الاعلام قد تحكمت سلبا في سلوكهما و مواقفهما وتشددهما وعدم الثقة القائمة بينهما. وهذا ما يبرز مدى عمق القطيعة التي تفصل بينهما .

نهدف من نشر هذه الدراسات الست التي قمنا بتجميعها في هذا الكتاب ، المساهمة في ارساء الحوار العلمي والسياسي بين الامتين العربية والتركية ، بعيدا عن صيغ التعميمات والإتهامات والتاويلات التاريخية المضللة التي سادت المناخ العربي- التركي منذ مدة طويلة .

هل نؤمل أن تصل نتائج هذه البحوث التاريخية الى صانعي القرار السياسي والإقتصادي والمعرفي و رجال الصحافة والإعلام حتي يعمل كل من موقعه ، على الإقتناع بحتمية التواصل والتكامل ، وعلى الخصوص العمل على فتح صفحة جديدة للعلاقات العربية-التركية و سوف نبقى دوما

من دعاة هذا الحوار و تعزيزه مستقبلا و على جميع المستويات .

* * *

لا بد لي في خاتمة هذه الكلمة ، أن أقدم للسيد بيار فورنييي والآنسة اليزابت ريشفور من محافظي أرشيف الخارجية الفرنسية بباريس ، كامل التقدير و الإمتنان للمساهمة التي تفضلا بها علي بتصوير بعض وثائق الخارجية الفرنسية والتي وظفت في بعض بحوثنا المنشورة في هذا الكتاب.

سيرمدي 8 مارس 1994 عبد الجليل التميمي

اهمية الموروث التاريخي العربي- العثماني وتاثيره على العلاقات العربية التركية*

مما لا شك فيه أن الوطن العربي وتركيا يعرفان اليوم على المستوى السياسي والاقتصادي والجامعي ، عددا من التحولات والمواقف الجديدة التي فرضتها طبيعة المتغيرات الجذرية الحاسمة، والتي ، على الرغم من حدتها وتباعد فلسفة ايديولوجيتها ، إلا أنها أمّنت وحافظت على خصوصيات الجذع المشترك للإنسان العربي والتركي على حد السواء ، وهي الخصوصيات التي صنعها وكيّفها سلبا وايجابا ، المسار التاريخي المشترك للأمتين خلال خمسة قرون .

وبحثنا هذا ، يسعى الى استكناه تلك الخصوصيات والعوامل الفاعلة والمؤثرة اليوم في الوعي التاريخي والسلوكي لإنسانية الفرد العربي والتركي ، باعتبار أن ذلك شكل ومازال - على الرغم من الهزات والخيبات السياسية و مواقف سياسيي الفريقين منذ أحداث الحرب العالمية الأولى - (1) ، رصيدا مرجعيا وفاعلا في إعادة هيكلة بناء علاقات مستقبلية جديدة للامتين ، باعتبار أن ما نحته المسار التاريخي في سلوكنا ووعينا وتقاليدنا وآثارنا ، هو أقوى من أن يمحي أو يتناسى بسهولة ، ذلك أن مصيرية الامتين ، حاضرا ومستقبلا ، تكمن في توظيف عناصر التحامهما الاجتماعي والاقتصادي والسياسي .

و قبل أن نتساءل عن موقع العرب من العثمانيين - الاتراك ، و موقع هؤلاء من العرب ، نذكّر هنا بعدد من الثوابت والمسلمات التاريخية التي تاكدت هذه السنوات الأخيرة لدى الباحثين والدارسين العرب والاتراك والأجانب وتعلقت بدور الدولة العثمانية في الولايات العربية ، وهذا نتيجة لحركية الحوار العلمي والمعرفي بينهم جميعا وعلى الخصوص سعيهم إلى توظيف واستنطاق أرصدة معلومات متنوعة وجديدة ، عربية وتركية ، كانت قد يسّرت ، والحق يقال ، استشفاف طبيعة الحكم العثماني في الولايات العربية ، بعيدا عن قوالب وشعارات التاطير الايديولوجي التي سادت

(*) ظهرت هذه الدراسة في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، عدد 7 و8 ، ص 117 - 127 . منشورات سيرمدي - زغوان ، 1993 .

(1) راجع دراستينا التاليتين : - "سياسة الاتحاديين ببلاد الشام والثورة العربية سنة 1916 : محاولة جديدة للفهم" المنشورة اسفله ، ص 47 = 75 .

- "العرب والاتراك في إطار الدولة العثمانية" المنشورة اسفله ، ص 89-92 .

التي مازالت مهيمنة لدى السياسيين والصحفيين العرب وحتى الاتراك عموما ، وهم المؤمنون بها دون وعي كبير لدلالاتها وأبعادها السلبية اليوم .وأول هذه المسلمات هو القول بأن الدولة العثمانية منعت تسرب الحضارة الغربية الى الولايات العربية و قطعت دابر الاتصال بين الشرق والغرب وكانت السبب في تخلف الولايات العربية " بل أحاط العثمانيون البلاد العربية بسياج منيع وحالوا بينها وبين العالم الخارجي ، فلم يعد تاريخ هذه البلاد يتصل من قريب أو بعيد بالأحداث الدولية ولم تكن عزلة البلاد العربية سياسية واقتصادية فحسب ، بل كانت حضارية" (2) .

إلا أن الواقع التاريخي برهن على أن هذه النظرية خاطئة تماما ، بل على العكس من ذلك كانت الدولة العثمانية "قد فتحت أبواب امبراطوريتها أمام الوافدين من أوروبا وسمحت لهم أن يقيموا على أرضها وفي أي بقعة يريدون وأن يتاجروا بحرية في موانئها ومدنها ولم تضغط أو تعيق تحركاتهم" (3) ، بل إن العثمانيين ، بحكم هذا الانفتاح الجغرافي القسري على أوروبا ، أدخلوا المشرق العربي في شبكة عالمية لتبادل البضائع المتنوعة . وعليه فإن القول بأن العالم العربي - الإسلامي كان في نوم عميق ، قبل أن يأخذ في النهوض بتاثير أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، هو قول مبالغ فيه جدا (4) ، إن لم يكن مجانبا للحقيقة والواقع . ولا شك أن الأسباب الحقيقية لهذه المقولات ترجع أساسا الى عدم إدراك وفهم خطورة وفعالية التحولات والمتغيرات الدولية الغربية والتي سيطرت ليس فقط على مصيرية الدولة العثمانية ، بل على العالم بأسره اقتصاديا وفكريا ودينيا ، لتجعله فريسة لإيديولجيته الاستعلائية ابتداء من العصر الحديث (5) .

ثانيا : إن المشرق والمغرب العربيين على حد سواء ، قد عرفا منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادي ، خطرا لاتينيا ماحقا ، هدد كياناتهما السياسية الضعيفة المملوكية منها والحفصية والوطاسية ، وكاد يعصف بكل مقوّماتهما اللغوية والدينية والهوية الحضارية ، ليذيبهما تماما

---

(2) د. عبد العظيم رمضان ، "التاثير الحضاري للفتح العثماني في المشرق العربي" في الولايات العربية في العهد العثماني ، ص 209 ، منشورات المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، 1984 .

(3) د. ليلى الصباغ ، الجاليات الاوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني ، ج 1 ، ص 14 ، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1989 .

(4) بارتلد ، ف ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، ص 152 ، مطبعة دار المعارف ، القاهرة ، 1983 .

(5) راجع بهذا الخصوص البحث الهام الذي اجراه المؤلفان التاليان حول الكتب المدرسية الغربية اليوم :

Preiswerk (Roy) et Perrot (Dominique), Ethnocentrisme et Histoire : l'Afrique, l'Amérique indienne et l'Asie dans les manuels occidentaux, Paris, 1975.

في فلكه . بل انّ الفضل يَرجع الى الدولة العثمانية التي انبرت للذود عن الدول العربية المحجّمة سياسيا واقتصاديا ، أمام الأخطار الخارجية البرتغالية والاسبانية والفارسية ، لتحافظ على وحدتها الترابية ومذهبها السني (6) . ولعل مصيرية بما أطلق عليه أجحافا بأمريكا اللاتينية ، بعد اكتشاف الأمريكيتين ، يعد نموذجا فريدا وعميق الدلالة على المسخ الحضاري والديني الكامل والمخطط له وحيث أصابها الى الأبد .

إن طبيعة وشكل التدخل العثماني على سواحل المغرب العربي ثم على مستوى اليمن والجزيرة العربية وكذلك العراق ، قد حافظا ، دون مراء أو مبالغة ، على الطابع العروبي لهذا الفضاء الجغرافي الرحب طوال أربعة قرون . إن أفكار القوميين والسياسيين العرب لهذه المسلمات التاريخية أو التقليل من أهميتها الاستراتيجية على المدى البعيد ، يترجم حتما على هيمنة مضامين الشعارات والقوالب الإيديولوجية والتي أثبتت أحداث المشرق العربي منذ منتصف هذا القرن ، على مدى ضبابيتها وعدم استشرافها للواقع التاريخي للبلاد العربية ، هذا فضلا عن أن المنادين بتلك الشعارات ، لم يكلّفوا أنفسهم مبدأ مواكبة وقبول نتائج البحوث والدراسات الموضوعية التي قام بها ، ليس فقط المؤرخون العرب ، ولكن أيضا الأجانب (7) .

---

(6) Inalcik, Halil, "Biases in Studing Ottoman History" in Studies on Turkish Arab Relations (S.O.T.A.R.),t. 2, p. 9.

(7) نعطي نموذجا لهذه الكتابات المتادلجة والمتطرفة قوميا :

حسن علوي ، التاثيرات التركية في المشروع القومي العربي في العراق ، ص 151 ، منشورات دار الزوراء ، لندن ، 1988 ، حيث ذكر بالحرف الواحد "ان التخريب والتدمير الذي أحدث في الشخصية العربية وفي الفكر القومي سهّل للغزاة (كذا) الاتراك أن يسقطوا فيما بعد بغداد وينهوا العصور العربية لتلك الحضارة" أو قول نفس المؤلف في مكان اخر ، نفس المصدر ، ص 24 : "لقد تحول العرب من حاكمين الى محكومين ومن سادة الى رعايا ... وهي خسارة قومية تمت تفاصيلها واقيمت حججها على أممية الإسلام" . أو قوله نفس المصدر، ص 161 : عاش العرب "كمواطنين من الدرجة الثانية في التسلسل القومي حيث الاتراك سادة الدولة وعانوا من تمييز قومي شديد فشكلوا الطرف المضطهد، محرومين كعرب حتى من حق التمثيل في السلطة حسب النسبة السكانية والتي كانت (5 عرب الى 2 اتراك) ولم تكن لهم حقوق قومية في اللغة العربية والتعليم العربي..."

أما الشاعر العراقي : جميل صدقي الزهاوي فقد وصل به الامر، أن يطلب من الشعب العراقي مناصرة الانقليز ضد الاتراك:

تبصر أيها العرب واترك ولاء التـرك مـن قـوم لئـام
ووالي الانقليز رجال عدل وصدق في الفعال وفي الكلام

راجع نفس المصدر ، ص 84 .

ان مثل هذه المواقف القومية المتطرفة والغير علمية ، لا تخدم في شيء التوجه الموضوعي للبحث التاريخي ، وهي تسيء حتما..

ثالثا إن بعض المؤرخين العرب خلال هذا القرن ، حاولوا اسقاط الدولة العثمانية من تاريخنا القومي (8) بل وذهب بعض الغلاة أمثال د. محمد أنيس الى القول بأن العثمانيين لم يدخلوا أي تغيير ذا بال على مصر وهذا بسبب عدم تمتعهم باي رصيد حضاري حتى يؤثروا على الحياة الفكرية المصرية (9) . وهناك من المؤرخين العرب من أطلق على الحكم العثماني في الولايات العربية مصطلحا جديدا عندما نعته ، سكونية العصور العثمانية ولا ظلاميتها" (10) و مصطلح غير واضح تماما ولا ياخذ بالإعتبار كل النتائج العميقة التي يسعى البحث التاريخ العربي منذ عقدين الوصول إليها .

ومن جهة أخرى ، فإن الاتراك الكماليين هم الأخرون الى وقت قريب جدا ، كان قد سيطر عليهم التوجه الإيديولوجي المتطرف والقاضي بعدم ذكر الدولة والسلطنة والخلافة العثمانية ، وإن فعلوا ذلك في بعض الأحيان ، فباحتشام كبير، وهو بالقدر الذي لا يسيء أولا الى الإختيارات الكبرى للدولة الكمالية المنظرة ولا يثير جدالا حول اختياراتها الفكرية ، وثانيا قاموا بذلك مجاراة وتماشيا للإهتمام الزايد - في نظرهم - والذي أظهره المؤرخون العرب والأجانب لدراسة الدولة العثمانية وولاياتها ثم دورها البارز في إنشاء هذه الامبراطورية والحفاظ عليها طوال أكثر من خمسة قرون . إن هذه الامبراطورية التي ادارت واحتضنت تقريبا كل الشعوب الاسلامية ، كانت تتمتع بمكانة متعاظمة في الشؤون ليس فقط الاوروبية بل والعربية والبلقانية وشكلت اهم محاور

...إلى مجهودات المدرسة التاريخية العربية اليوم والتي تسعى الى التقيد بالمنهجية التاريخية في بحوثها الاكاديمية وهي البحوث التي لم يطلع عليها القوميون المنظرون والسياسيون والصحفيون العرب والذين يجهلون كل المعطيات التاريخية عن طبيعة الحكم العثماني ولو توقفوا قليلا لدراسة أوضاع بعض البلدان العربية المشرقية اليوم ، بعد حصولها على استقلالها السياسي من العثمانيين والغربيين على حد السواء ، لتأكد لدى كل منصف محايد ، أن حكم الدولة العثمانية للولايات العربية كان حتما أكثر عدلا وانسانية و على الخصوص أكثر أمنا وطمانينة . ولا شك أيضا ، أن هناك تجاوزات خطيرة جدا قد مارسها الولاة العثمانيون العسكريون ضد ، ليس فقط الشعب العربي ، ولكن أيضا الاناضولي والبلقاني وإن الثورات التي عرفتها الساحة الأناضولية ضد السلاطين والصدراء العظام وكبار رجال الدولة ، الذين قدموا حياتهم ثمنا لذلك ، لم تعرفها ساحات الولايات العربية بنفس الحدة والخطورة والنتائج .

(8) د. عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم ، الريف المصري ، من تقديم د. عزت عبد الكريم ، ص ح ، منشورات جامعة عين شمس ، القاهرة ، 1974 .

(9) Abul-El-Hadj, Rifat, "The Social Uses of The Past : Recent Arab Historiography of Ottoman Rule" in, International Journal of middle East Studies, Vol. 14, Mai, 1992, 2, p. 193.

(10) د. جميل السيار ، حصار الموصل ... الصراع الإقليمي ، ص 27-28 .

تحركها السياسي والعسكري والاقتصادي طوال العصر الحديث .

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن: ماهو موقع العرب من الاتراك - العثمانيين ومؤسساتهم الادارية والاقتصادية ورصيدهم الحضاري عامة ؟

تؤكد الدراسات التاريخية ان العلاقات العربية التركية لم تبدأ بفتح السلطان سليم الأول لبلاد لشام ومصر سنة 1516 - 1517 ، بل هي أقدم من ذلك بكثير ، حيث سجل وجود العنصر غربي في الجيش العثماني منذ عهد اورخان عندما تسرب العرب في الممتلكات التي استولت عليها الدولة العثمانية حتى اقصى غرب البلقان ، عاملين في حقل نقل الحاجيات والتجهيزات اللازمة بوجودهم ... وكانت هناك جالية كبيرة من العرب الرحّل موجودة دوما في غربي وجنوبي اناطوليا في القرن الرابع عشر..." (11).

كذلك كانت بورصة ، عاصمة العثمانيين قبل القسطنطينية ، قد أمها المشارقيون والمغاربيون (12) قصد الاتجار ومواكبة الاحداث السياسية الهامة جدا يومئذ . وفضلا عن ذلك فقد تمتع المسؤولون العثمانيون والمماليك قبل عقدين من فتح القسطنطينية ، بعلاقات طيبة ان لم تكن جيدة ، ويترجم عن ذلك تبادل السفراء وتعدد المهام المختلفة وظاهرة الزواج وتبادل الهدايا والمعلومات بينهما (13) . وازدادت تلك العلاقات متانة وعمقا بعد سقوط القسطنطينية حيث أظهر السلطان محمد الفاتح اهتماما خاصا بنوعية العلاقات المستقبلية مع العرب وعلى الخصوص مع شرافة مكة عندما وجه مبعوثين الى زعماء المسلمين يومئذ كانوا قد حملوا رسائل حررت باللغة العربية (كذا) الى شريف مكة وعلمائها (14) . على أن الذي وجب التوقف عنده لدى المسؤولين العثمانيين الأول هو ولا شك الطابع التديني للإسلام السني الذي أظهروه في سلوكهم ومعاملاتهم وممارستهم للسلطة العليا في الدولة . ومن هذه الزاوية احتلت ثقافة وحضارة ودين العرب ، مكانة

---

(11) د. خليل اناليك "سائقو الجمال العرب في اناطوليا في القرن الخامس عشر" في الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني" ج 3 ، ص 573 ، منشورات المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، 1984 .
Inalak, Halil "Arab Camel Drivers in Western Anatolia in the Fifteenth Century" in Les provinces arabes ... op.cit., pp. 257-270. Tunis 1984.

(12) د. خليل الساحلي "من سجلات محاكم الشرع في بورصة : مقاربة في تركيا في أواخر القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر" في المجلة التاريخية المغربية ، عدد 2 ، ص 47 - 50 ، تونس ، 1975

(13) د. عبد الجليل التميمي ، "العلاقات العربية - العثمانية بعد فتح القسطنطينية سنة 1453" راجع الدراسة التالية المنشورة أسفله ، ص 23 - 46 .

(14) المصدر نفسه .

كبيرة من نفوس السلاطين والعلماء ورجال الدين العثمانيين عموما (15) .

وفضلا عن ذلك ، فإن المسؤولين العثمانيين يقرّون بأن الفضاء الجغرافي العربي من حدود الجزائر الى الخليج العربي ، هو الذي منح الإمبراطورية العثمانية مكانتها الاستراتيجية الخطيرة ووزنها الدولي الفريد ، كما يقرّون بأن الحضارة العربية كانت جزءا من العالم التركي وبنفس الدرجة من الحضارة التركية التي ترجمت عنها التأثيرات البينة للقيم العربية التي تبناها العثمانيون "دون تردد" (16) .

وفي هذا السياق ، نذكر بان عددا من علماء السلاجقة ثم الأتراك قد تلقّوا دراساتهم العليا في مدارس سوريا ومصر (17) ، باعتبارهما منارتين من أهم منارات الفكر الاسلامي يومئذ ، وهذا ما يفسر كيف أن اللغة العربية كانت اللغة الرسمية للدولة السلجوقية والدويلات التي تأسست في الأناضول حتى القرن الثالث عشر الميلادي (18) .كما تمتعت القاهرة ، على الخصوص ، باحترام كبير جدا في نفوس العثمانيين لمكانتها المتميزة ، وان السلاطين كثيرا ما استنجدوا بالعلماء العرب وعينوهم في مناصب عليا في الدولة (19) ، بل ان احد السلاطين وهو عثمان

---

(15) A. Raymond "Les provinces arabes XVIè- XVIIIè siècles" in l'Histoire de l'Empire ottoman sous la direction de R. Mantran, p. 685.

(16) Mustapha Asula, "Turkish-Arab Relations in Historical Bacground" in S.O.T.A.R. t. 1, p. 21.

مازال موضوع التأثيرات العربية المختلفة على أنظمة الدولة العثمانية ومؤسساتها وحضارتها بصفة عامة ، لم يقع الاهتمام به ، وهو لعمري موضوع دقيق سيبرز حتما كيف أن التأثير العربي كان حاسما وبينا في عدد كبير من الميادين .

(17) د. صالح طوغ "نظرة الى العلاقات التربوية التركية - العربية" في : S.O.T.A.R عدد 1 ، ص 312 - 313 ، وقد قدم المؤلف عددا من تلك الأسماء والأعلام التي تلقت تعلمها بالقاهرة :

- الشيخ شرف الدين داود القيصري (توفي سنة 1350 م)
- الشيخ بدر الدين محمود (توفي 1420 م)
- الشيخ خضر بك (توفي سنة 1459 م)
- الشيخ صالح افندي جلال زادة (توفي سنة 1565 م)

(18) د. ابراهيم الداقوقي ، "التأثير المتبادل بين اللغتين العربية والتركية في العهد العثماني" في الحياة الاجتماعية في الولايات العربية ، ص 346 ، منشورات سيرمدي - زغوان ، 1988 .

(19) المصدر نفسه ، ومن جهة اخرى كان الجبرتي قد استهواه الطابع الديني البارز في سياسات الدولة العثمانية حيث تكلم بإعجاب وفي عبارات مشجعة عن اهتمام السلاطين العثمانيين باقامة الشعائر الاسلامية والسنن المحمدية وتعظيم العلماء واهل الدين وخدمة الحرمين الشريفين والتمسك بالاحكام والوقائع وبالقوانين والشرائع . فتحصنت دولتهم وطالت مدتهم وهابتهم

الثاني بن السلطان احمد (1618 - 1622) ، عندما تبين له فساد الانكشارية ، وانهم لم يعودوا صالحين للحرب ، فكر ان يتصنع الذهاب الى الحج وهناك يجمع جيشا من العرب ليقضي به على الانكشارية" (20).

لقد كانت اللغة العربية قبل الفتح العثماني للبلاد العربية وبعده ، تعدّ أحد القنوات التعبيرية عن الثقافة والأدب ، وان اصطلاحات العلوم العثمانية أغلبها بالعربية (21) وهذا ما يترجم عن مدى عمق التداخل العضوي للوجود العربي في ذهنية وسلوك العلماء الأتراك وتقديرهم للغة العربية ، باعتبارها لغة القرآن الكريم . و من هذا الباب كان تعلم اللغة العربية احد الشروط الاساسية لتولي المناصب الدينية العليا للدولة وعلى الخصوص منصب الإفتاء والقضاء والتدريس ، بل وجب التذكير هنا أنه ، نتيجة للاستعمال المطرد للغة العربية لدى الطبقات النيرة ، فانه يرجع للعثمانيين - الأتراك ولهم وحدهم وحتما لم يكن للعرب لا المشارقيين ولا المغاربيين ، فضل اكتشاف العلاّمة العربي ابن خلدون . ومعنى هذا أن العثمانيين هم الذين قاموا باكتشافه ونقل معالمه التاريخية الخالدة عن طريق الترجمة و بالتعريف به للغرب وحيث قام هذا الأخير بالتنويه بعبقريته المعرفية الخالدة (22) ، وهذا ما جعل المؤرخ هامر (Hammer) يصفه بمونتسكيو العرب (Montesquieu arabe) (23) . إن القول بأن العثمانيين حموا اللغة العربية ودافعوا عنها واستعملوها كوسيلة لانتاجهم الفقهي والتاريخي (24) ، أمر لا نزاع فيه البتة . لنذكر هنا بأن مكتبات تركيا تضم اليوم أكثر من 300 ألف مخطوطة باللغة العربية ، وهو ما يشكل أهم رصيد حضاري للأمة العربية على الإطلاق في العالم (25) . بل إن اللغة التركية وقعت تحت تاثير اللغة العربية ، وهذا ما يترجم عن وجود أكثر من ثلاثين ألف كلمة عربية متولدة أو منحوتة عنها في

... الملوك وانقاد لهم المالك والمملوك..." راجع د. عبد العزيز الشناوي "دور الازهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر ابّان العصر العثماني" في ابحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ص 677 ، منشورات مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، 1970.

(20) د. حسين مؤنس ، اطلس تاريخ الإسلام ، باب الدولة العثمانية ، ص 360 ، منشورات دار الكتب القاهرة ، 1970.

(21) د. محمد حرب ، العثمانيون في التاريخ والحضارة ، ص 424 ، منشورات دار القلم دمشق ، 1989 .

(22) Bernard Lewis, "Ibn Khaldoun in Turkey" in, S.O.T.A.R, T 3. p. 107.

يعلق المؤلف بقوله : إنّ ابن خلدون قد اهمل وتونسي من طرف شعبه حتى اكتشافه من طرف العلماء الغربيين . وإذا كان هذا الامر صحيحا بالنسبة لشمال افريقيا ، فإن الامر غير صحيح بالنسبة للعثمانيين الذين اكتشفوه بالفعل وقرأوه وترك ذلك تاثيرا عظيما جدا فيهم .

(23) Hammer, Histoire de l'Empire Ottoman, t.6,p. 282

القاموس الطبي التركي وأن قاموس شمس الدين سامي المشهور ضم 13 الف كلمة عربية وقاموس علي نظيما ورشاد الذي نشر سنة 1901 ، قد ضمّ هو الآخر ثمانية عشر الف كلمة عربية (26). ويذهب بعض المهتمين بهذا الحقل من الدراسات ، أن الالفاظ العربية كانت تمثل 30٪ من مجموع الالفاظ العثمانية المتداولة ، وسيادة اللغة العربية على اللغة التركية استمرت رغم محاولات التتريك ، بحيث نجد في قاموس مصطفى نهاد أوزون الصادر عام 1952 ، وجود 19 الف لفظة عربية من مجموع 40 الف (كذا) ، وأن المعجم العثماني - التركي لفريد ده دوللي المطبوع سنة 1970 ، سجل وجود 20 ألف من مجموع 50 الف (27).

إن الالتحام والامتزاج اللغويين بين الأمتين ، يعدان دليلا مكملا على عمق التداخل والترابط اللغوي والحضاري المتبادل بينهما. وقد تفرع عن ذلك ، ولا شك ، مدى تاثير الفولكلور التركي بالفولكلور العربي في العديد من مقوماته وأسسه الجمالية والفنية كنوعية الرقصات والإيقاعات الموسيقية واستعمال معظم الآلات العربية ثم مجال الخط العربي الذي برع فيه العثمانيون واثروه جماليا وفنيا حيث يشهد لهم به المتضلعون في هذا الفن . كما ان العثمانيين تبنوا العديد من جماليات الهندسة المعمارية المحلية في محاولة منهم لجعل العرب اكثر اريحية في التعامل معهم (28) . كما نؤكد على تبني الأزياء والحلي العربية واستعمال الاشغال اليدوية وحتى المطعم التركي- العثماني ، فهو الآخر قد تاثر بالعديد من الاكلات العربية . الخالصة (29) . وهذا إلى درجة أن أي زائر عربي اليوم لتركيا يستهويه هذا الموروث الحضاري والذي مازالت وسوف تبقى بصماته منحوتة في سلوك وعقلية ونفسية الاتراك ، إذ العصرنة والتحديث لا تعني حتما محاربة ماكان ايجابيا من هذا الموروث التاريخي الحضاري للامة التركية ، باعتبار أن هذه التاثيرات والمعطيات والشواهد على غناء الموروث الحضاري العربي وتفاعلها ايجابا لدى الاتراك - العثمانيين ،

----

(24) القائمة طويلة في هذا المجال نذكر بعض الرموز التي عززت اهمية ومكانة السنة في الكتابة التاريخية :
- الشقائق النعمان في علماء الدولة العثمانية لطاش كبرى زاده وكشف الظنون لحاجي خليفة وجامع الدول لنجم باشي، راجع بهذا الخصوص ايضا : M.F. Koprulu, "Othmanli" in Encyclopédie de l'Islam p. 221, Leiden, 1993.

(25) د. آمال دغراماجي ، "الجمهورية التركية ومكانة اللغة العربية" في : S.O.T.A.R ، عدد 1 ، ص 41 .

(26) د. ابراهيم الداقوقي ، نفس المصدر ، ص 345 .

(27) المصدر نفسه ، 346 .

(28) P. Ellis "Beit et Ivan. Les salles de réception des maisons ottomanes" in La vie sociale des provinces arabes à l'époque ottomane, p. 136.

(29) د. ابراهيم الداقوقي ، نفس المصدر ، ص 352 .

سوف تبقى رغم التباعد والجفوة السياسية المسجلة في الماضي، كإحدى المرتكزات الثابتة والفاعلة للشعب التركي تجاه الشعب العربي ، اليوم وغدا .

أما إذا تناولنا موقع الاتراك - العثمانيين من العرب ومدى تاثير الموروث الحضاري العثماني على البنية الفكرية والاجتماعية والسياسية والسلوكية للإنسان العربي اليوم ، فسيراعنا مدى التباينات الجوهرية الصارخة التي ميزت مواقف العرب تجاه مسألة الحكم العثماني بالولايات العربية وفرقتهم شيعا وأحزابا ومازالت مع أسفنا الشديد ، تؤثر سلبا على غائية العلاقات العربية-التركية . ذلك أن النظرة التجزيئية للأحداث العربية السلبية فقط أثناء الحكم العثماني والمسجلة على مستوى الولايات العربية ، ثم اضفاء الطابع التعميمي والشمولي والإصداع بمقولات وأحكام جائرة وغير مدعمة بالوثائق الجديدة ، عربية او تركية ، هي نظرة أحادية قاصرة وغير موضوعية ولا تخدم تاريخنا ولا واقعنا السياسي والحضاري ولاالمستقبلي وحتما تنسف كل المجهودات التي ترمي الى إقامة الحوار المتكافئ بيننا وبين الاتراك اليوم .

لنقرّ الآن بأن العثمانيين قد احتلوا مركزا فريدا في تاريخ العرب الحديث ، لم تحتله أي دولة أخرى في التاريخ على الإطلاق ، وقد نتج عن ذلك بروز آثار عميقة جدا على كل المستويات الاجتماعية والإدارية والاقتصادية لم تتحد بعد حتى اليوم ، كل اشكالياتها التاريخية العديدة . ومع هذا فإن الواقع الحضاري يستمد شرعيته من مختلف رموز ودلالات التعايش والالتحام السياسي والإداري بين الشعبين حينا وأحيانا أخرى في طبيعة المواجهات العسكرية ونظام الحكم الاستعلائي الطبقي الذي مارسه الولاة العثمانيون ليس فقط في الولايات العربية بل أيضا على مستوى الأناضول نفسه ثم في مركز السلطة وكذلك في الولايات البلقانية . لنأخذ بالاعتبار مدى المسؤولية الإدارية الدقيقة التي أنيطت بعهدة الدولة العثمانية لإدارة امبراطوريتها الشاسعة جدا والتي تجاوزت الستين من الاجناس والشعوب والاقليات (30) ذات الاديان المختلفة والمذاهب غير المسالمة بينها ، وهو الامر الذي لم يتح لاي دولة عربية - اسلامية على الإطلاق قبل ذلك . وكان على الدولة العثمانية أن تشرّع وتطوّع القوانين وفقا لخصوصيات وملابسات كل ولاية على حدة . إن قوانين نامة مصر (31) وبلاد الشام والعراق و التي تبنتها الدولة العثمانية لحسن تسيير شؤون هذه الولايات، احتراما لتقاليدها واعرافها وخصوصياتها الاجتماعية والإدارية ، يمثل نموذجا ذكيا

---

(30) Leiden, Kamal Karpart, The Ottoman State and its Place in World History, Preface, p. 2, 1974.

(31) د. عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم ، "دراسة عن ضوابط قانون نامة مصر ومدى تطبيقها مع النص الذي ترجمه د. خليل الساحلي أوغلو : الدراسة والنص " في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، عدد 1 ، ص 251-285 ، منشورات سيرمدي - زغوان ، 1990 .

للإقرار بالإختلاف وأخذه بالإعتبار في ديناميكية التسيير الناجع . ومعنى ذلك أن الدولة العثمانية لم تفرض نظاما اداريا عثمانيا واحدا ، جامدا ومركزيا في الولايات العربية ، بل على العكس من ذلك اخذت بالاعتبار الموروث الاداري في أهم مراكز الثقل الحضاري العربي : مصر وبلاد الشام والعراق ومنحت للولايات العربية بذلك وحدتها الترابية الإدارية وأمّنت بسهولة حركة تنقل البضائع والافكار والاشخاص (32) . على أن طبيعة الحكم عموما قد أتاحت قسطا كبيرا من الحرية والقدرة على التحرك وتكييف الأوضاع الاقتصادية والثقافية طبقا لما الفه العرب من تقاليد وعادات وباعد بينهم وبين الخضوع للمؤثرات العثمانية على اختلاف صورها واشكالها (33) . بل إن العثمانيين كانوا وراء كثرة المنشآت الدينية والثقافية والمدارس وعمموا انتشار أملاك الأحباس التي وّظفوها في المشاريع والمؤسسات الخيرية والدينية ، وهو الامر الذي لم تقم به أية دولة عربية - اسلامية بهذا الانتشار الكبير قبل ذلك (34) . ومن هذا المنطلق إذن كان العثمانيون قد احتفظوا لانفسهم بالمناصب العسكرية والإدارية وهذا ما يمكن تعليله وحتما لا نبرره ، فإنهم اسلموا قيادة الولايات العربية الدينية والعلمية والثقافية للإنسان العربي (35) . وحتى الصحية ومختلف المرافق الاجتماعية ، فقد أنيطت عهدتها الى الاعيان الإداريين العرب (36) . والاسرة الجليلية مثلا بالموصل مسكت الحكم اكثر من قرن وكانت تعبيرا واضحا على قدرة القوى المحلية واستقلالها في ادارة الشؤون الداخلية وقد باركتها الادارة العثمانية المركزية بادئ الامر . وهناك قوى محلية عديدة في بلاد الشام قد تولت لفترات معينة تسيير البلاد وسعت من خلال كل ذلك الى توظيف (37) اللغة الوطنية على مستوى المرافق العامة ما عدا الشؤون العسكرية والمالية التي كانت على العموم بالولايات العربية بيد الولاة العثمانيين . وهذا ما يؤكد أن العثمانيين لم يفرضوا اللغة التركية

----

(32) Raymond, André, "Les provinces ... op.cit.," p. 367.

(33) راجع : د. روبار منتران "العلاقات بين القاهرة والاستانة خلال العهد العثماني" في ابحاث ندوة القاهرة ، ص 674.

(34) د. عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية ، دولة اسلامية مفترى عليها ، ج 1 ، ص 11 ، القاهرة .

(35) د. احمد المرسي الصفصافي ، "الدولة العثمانية والولايات العربية" ، في الولايات العربية ... نفس المصدر ، ص 343 . راجع ايضا : د. اكمال الدين احسان أوغلو : "قراءة لتاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها بالعالم العربي من خلا كتب التاريخ" في S.O.T.A.R ، عدد 1 ، ص 101 ، ذاكرا انه اقتصر الحكام العثمانيون على السيطرة العسكرية وا يمسوا مرافق البلاد الاخرى ، فإنهم تركوا للعصبيات المحلية وللطوائف الدينية قدرا كبيرا من الحرية" .

(36) 'aesar E. Farah, "Arabs and Turks : Commun Heritage, Commun Destiny" in, .O.T.A.R, t. 1, p. 63.

(37) د. عماد عبد السلام رؤوف ، الموصل ... نفس المصدر ، ص 457 .

والدراسات اللغوية أو الأدبية في الازهر (38) ولا في الزيتونة ، بل ان الدولة العثماينة لم تعين أي عالم عثماني، في منصب شيخ الجامع الازهر طوال الحكم العثماني ، وان هذا المنصب كان يشغله العلماء المصريون دون أن ينافسهم فيه علماء عثمانيون (39) . وقد منح العلماء مكانة اجتماعية وسياسية واقتصادية متميزة وحرية كاملة للتنقل في النظام الجغرافي العثماني الواسع ، وهذا يفسر مدى الانتعاش الكبير الذي شمل الحركة الفكرية والتعليمية وانتشار المدارس الذي كان وراء ازدياد احساس الانتماء الى الحضارة والامة العربية، بل إن عهد التنظيمات العثماني المطبق في الولايات العربية ، قد ساهم ولاشك في حركة اليقضة الوطنية العربية (40) . ان اللغة العربية طوال العهد العثماني ، ماعدا فترة الاتحاديين ، لم تضطهد ولم تحارب البتة ، بل على العكس من ذلك كانت لغة العلم والمعرفة والعدالة والتخاطب الشعبي ولغة الازجال والأمثال العربية ، وقد بقيت لغة الكتابة التاريخية في كل الولايات العربية ، .وهذا على الرغم من الطابع المهيمن للسلطة السياسية والعسكرية العثمانية فيها. وفي العراق مثلا ، بقيت اللغة العربية تمثل ثقافة الشعب من علماء وطلبة، وهو الشيء الذي جعل الباحثين يقرون بأن مدرسة أولئك العلماء كانت عربية اللغة تماما ولم تتأثر بالمؤتمرات الأجنبية ، التركية منها والفارسية (41) . وقل مثل هذا الأمر بالنسبة لبقية الولايات العربية بشكل عام ، الا ان ذلك لم يمنع من قبول وتداول مئات الكلمات التركية الأصل في اللهجات العربية التي غطت على الخصوص المهن الحرفية والمطبخ والبيت (42) .

وإذا كانت مثل هذه الدلالات المعرفية ايجابية النتائج ، فإن طبيعة هندسة المدن العربية وأهمية البعض منها كالقاهرة مثلا (43) ثم تحصين المدن واعادة ترميم أسوارها وحصونها وبناء الابراج والمنارات وبناء التكايا والاسبلة والخانقات والحمامات العامة (44) كان ولا شك عنصرا مباشرا في التوسع العمراني للمدن العربية أثناء العهد العثماني (45). أما رعاية طرق المواصلات البرية والبحرية فقد عزّز هو الآخر محتوى الموروث العثماني لدى العرب وأثراه إثراء حاسما وبيّنا وخصوصا لكل ما يتعلق بدور الحج الهام في دعم الترابط والتلاحم السياسي والديني .

---

(38) د. الشناوي ، دور الازهر ... نفس المصدر ، ص، 678 .

(39) المصدر نفسه ، ص 706 .

(40) Inalcik, Halil, "Arab - Turkish Relation in Historial Perspective (1260-1914)" in, S.O.T.A.R, T.1, P. 157.

(41) د. عماد عبد السلام رؤوف ، التاريخ والمؤرخون العراقيون في العهد العثماني ، ص 22 ، بغداد .

(42) انجزت بعض الدراسات التي قامت بحصر الكلمات التركية المتداولة حتى اليوم في العراق وسوريا والجزائر وقد قمنا نحن بتكشيف البعض منها بحصر في اللهجة التونسية اليوم .

ان القنوات التعبيرية لهذا الموروث العثماني لدى العرب تتجسم في وعي وسلوك ومشاعر الفرد العربي مغربا ومشرقا. ولعل أهم مظاهر هذا الموروث ، على المستوى الاجتماعي ، هو أن آلاف العائلات العربية مازالت ليوم الناس هذا ، مشدودة الى تركيا بحكم جذوزها العرقية ومنبتها الأصلي وتداخل مصالحها ، هذا فضلا عن النتائج المتولدة عن ظاهرة الزواج التي عمقت قوة الانتماء والشعور بالاعتزاز الى تركيا. بل ان ملامح هذا الاحتكاك بيّنة اليوم بشكل ملموس في دماء الشعبين وسيماتهم وقسماتهم الفسيولوجية وعاداتهم وملابسهم ومطبخهم وشعورهم الى اليوم بالاعتزاز والنخوة لكل ما هو تركي وعثماني (46). ومن هذا المنطلق تاثرت فلسفة هندسة البيت بالعناصر الفنية التركية البحتة حيث سجّل استعمال العناصر الأثرية العثمانية في إثراء الجماليات الفنية المحلية ومدى توافقها لأخلاقيات وسلوك العرب والاتراك - الحنفيين (47) .كذلك تاثر المطبخ العربي بالموروث العثماني في العديد من مميزاته وسيماته وتنوعه، وهذا نتيجة التداخل والتفاعل الاجتماعي والحضاري بين الامتين على مدى الاحقاب والاجيال ، وان دل هذا على شيء ، فانما يدل ، واقعا وحقيقة ، على مدى مختلف التاثيرات التي احدثها الحكم العثماني في المجتمع العربي، وهي التاثيرات التي مازالت بصماتها منحوتة في وعي وسلوك الفرد العربي كلما تعلق الأمر بعلاقاته بتركيا ماضيا وحاضرا . ان السعي الى نحت علاقات جديدة تتسم بالتواصل والتلاقي الحضاري والسياسي ، انطلاقا مما يجمع بين الشعبين وهو حتما اكثر بكثير ما يفرقهما ، مع

----

(43) André Raymond,Le Caire, p. 226

يذكر المؤلف انه على الرغم من المصائب التي حلت بمدينة القاهرة ، فانها ولا شك كانت خلال سنة 1798 مدينة اكثر أهمية من العصر الذهبي لعبد الناصر !

(44) Turkiye Desindaki Osmanli Mimari Yapitlari (Ottoman Architectural Works Outside Turkey), Publications of Ministry of Foreign Office, Ankara, 1989.

يوجد ما لا يقل عن 200 بناية عثمانية بالقاهرة و 100 مجلب و50 ببغداد وقل مثل هذا الأمر بالنسبة لسوريا وا... بالنسبة لتونس والجزائر او ليبيا . راجع A. Raymond, Les provinces ... op.cit. p. 684.

(45) A. Raymond "Les grandes villes arabes à l'époque ottomane" in S.O.T.A.R. t.5, p. 26.

(46) يذكر الاستاذ خليل اناليك أن الموروث العثماني الثقافي قد أحدث تاثيرا وتقديرا كبيرا جدا حتى بالنسبة لغير المسلمين الذين كثيرا ما عبروا عن رغبتهم في التشبه بالعثمانيين في لباسهم ونظام حياتهم ، راجع هذه الدراسة في هذا الخصوص :
Inalcik, Halil, Studies in Ottoman Social and Economic History, p. 93 London .

(47) ...llis, op. cit., p. 136.

مما لاشك فيه ان العثمانيين ابرزوا اسلوبا جديدا في العمارة ، وانجازات المعماريين العثمانيين خلال القرن الخامس والسادس عشر ليست مطلقا اقل من آثار عهد النهضة المعمارية في أوروبا . راجع بارتلد ، نفس المصدر ، ص 150 .

الأخذ بالاعتبار لخطوط التوافق والانسجام الشعبي والمصلحة العليا للأمتين ، هو رهين طبيعة حوارهما المباشر وعلى المستويات الجامعية والسياسية والاقتصادية ، وتلك أمانة دقيقة وجب تحملها بكل شجاعة وصدق ونبل وإخلاص ، اذا ما أريد لهاتين الأمتين نحت علاقات مستقبلية صلبة تنبع من احترام كليهما لموروثهما الحضاري الهام وعلى الخصوص احترام اختياراتهما الفكرية والاقتصادية والسياسية والقومية للأمتين العربية والتركية .

العلاقات العربية - العثمانية بعد فتح القسطنطينية سنة 1453 *

لم يهتم المؤرخون والباحثون بالعلاقات العربية - العثمانية قبل سنة 1516 الا نادرا، وهو الامر الذي دعاني ان افرد له هذه الدراسة التي استندنا فيها الى شبكة من المعلومات التاريخية المختلفة التركية والبيزنطية والمملوكية والغربية في محاولة منا دراسة العلاقات العربية - العثمانية على اثر فتح القسطنطينية سنة 1453 مباشرة (1). واساس اهتمامنا بدراسة هذا الجانب التاريخي، يرجع الى اكتشافنا بالمكتبة البريطانية بلندن (British Library) لمخطوطة بالقسم الشرقي (OR 61) ، حيث عثرنا على خمس رسائل موجهة من السلطان محمد الفاتح الى سلطان مصر اينال والى شريف مكة واجوبتهما على رسالة السلطان العثماني . وهذه المراسلة تمت على اثر فتح القسطنطينية وحتى اواخر سنة 1453 .

واثناء تحرياتنا البيبليوغرافية، تاكد لدينا وجود عدة نسخ من هذا المخطوط الثمين (2) ذات القيمة التاريخية المطلقة، بل واكثر من ذلك ، تم باستانبول طبع هذا المخطوط كلية في القرن الماضي (3) باللغة الفارسية وحيث بقي مجهولا نسبيا وعلى الخصوص لم يتم توظيفه تاريخيا الى ان نشر الاستاذ احمد آتش مقاله حول الموضوع لتكون لدينا فكرة شاملة عن هذه الوثائق التي تناولت العلاقات العربية-العثمانية الاولى (4).

اما د. احمد متولي فقد نشر رسالتين فقط من مجموع الخمس رسائل التي تهمنا هنا، ونعني

----

* نشر هذا البحث في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية عدد 1 و2 ، ص 43 - 66 ، منشورات سيرمدي ، زغوان ، 1990 .

(1) ومع هذا فالاستاذ خليل اينالجيك لم يذكر شيئا عن هذا الموضوع في كتابه :

Inalcik. Halil, "Fatih Devri Uzerinde Tetkiler ve Vesikaler"

(بحوث ووثائق عن فترة محمد الفاتح)، 245 ص ، انقرة، 1954 .

راجع ايضا : Salahettin Tansel " Osmanli Kaynaklarine gõre Fatih Sultan Mehmed Siyasi ve Askari Faaliyeti", in Turk Tarih Kurümü, pp. 229-341, Ankara, 1953.

وقد نشر نفس المؤلف كتابا جديدا عن محمد الفاتح، الا انه لم يتعرض لعلاقاته مع مصر بعد فتح القسطنطينية:

Osmanli Kaynaklarine göre Fatih Ahmed'in Siyasi ve Askari Faaliyeli, 356p, Publications de Türk Tarih Kurümü, Ankara, 1985.

(2) احمد فريدون بك، منشآت سلاطين، طوب كابي رقم 1960 .

(3) المصدر نفسه، مكتبة روان رقم 1429 ، نشر باستانبول سنة 1858 .

(4) Ahmed Ates " Fatih Sultan Mehmed Tarafindan gönderilen mektublar ve bunlara gelen ceablar", in, Tarih Dergisi, T. IV, n°7 (1953), pp. 11-50.

بهما رسالة السلطان محمد الفاتح الى سلطان مصر وجواب هذا الاخير عليه (5). وهو الامر الذي دعانا الى اعادة دراسة هذه الفترة الزمنية ليس فقط لدراسة العلاقات العربية - العثمانية، ولكن ايضا لداسة موقف السلطان العثماني " ذي التوجه العربي" ومعتقداته الدينية وصدى الاستيلاء على القسطنطينية في البلاد العربية في تلك الفترة.

فالمسؤولون العثمانيون والمماليك كانوا يتمتعون بعلاقات طيبة ان لم تكن جيدة. وقد ترجم عن ذلك تبادل السفراء وتعدد المهام المختلفة وظاهرة الزواج التي كانت تتم بينهما، ثم ان تبادل الهدايا والمعلومات، قد ميز ولا شك هذه العلاقات خلال العقدين الذين سبقا فتح القسطنطينية (6). على ان الدارس لطبيعة المناخ السياسي سوف يلحظ مدى الاهتمام المشترك والحرص الذي اظهراه للدفاع عن " الجبهة الاسلامية" لسواحلهما (7) وأسطولهما التجاري والعمل على ضمان النظام والامن في الولايات التابعة لكل منهما. وقد ترجم مستوى المراسلة المتبادلة بينهما وانتظامها ومحتواها، عن هذه العلاقات الطيبة " البعيدة ولكنها ودية للغاية" (8).

واجع ايضا :
Selabettin Tekindag " Fetih devrinde Osmanli Memluke munasebetleri", in Tarih Dergisi, n° 30 (1976), pp. 73-98.

راجع لنفس المؤلف: " Misir, Surye ve Hicazdan Yazilmiz arabce eserlerin Osmanli Tarihi bakimindan önemi", in, VII. Türk Tarih Kongresi, II cilt, pp. 534-539, Ankara, 1979.

يبدوا لنا على ضوء هذه البحوث ان مقالي الزميلين التركيين قد حاولا التعريف بالخصوط الكبرى للعلاقات العربية - العثمانية، ولكن دون ان يقدما كل المعلومات حول ذلك، ولم يعملا على اثرائها بمصادر تاريخية اخرى.

(5) د. محمد فؤاد متولي، الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له، القاهرة، 1976. وقد نشر المؤلف رسالتين فقط ولكن دون اي تعليق عليهما، راجع ايضا : د. سالم الراشدي، محمد الفاتح ، اذ هو الاخر قد اعاد نشر الرسائل الخمس من فريدون بك، نفس العدد، ولكن دون تحليل معمق لها، 440 ص ، الطبعة الثانية، بيروت، 1969.

(6) لا شك ان نشر هذه الوثائق سيكون مفيدا جدا لتحديد خلفية محمد الفاتح ودراسة مواقفه من البلاد العربية يومئذ، راجع : د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، مصر والشام في عصر المماليك، ص 317، القاهرة، 1972.

(7) H Turkova " Le siège de Constantinople d'après la Seyhatname d'Evliya Çelebi", in, Byzamtinoslovica,XIV, pp. 50-57, Prague, 1957..

حيث ذكر المؤلف ان الامبراطور البيزنطي قسطنطين قد جهز ستمائة باخرة لتخريب السواحل العربية من " عكا الى سعيد وبيروت والشام وطرابلس وغزة والرملة حتى راس حسن" وقد استولوا على هذه البلاد وسجنوا الكثير من المواطنين واكثر من الف امراة عربيات ومن الجواري، وهن جميلات مثل غادات الجنة" .

(8) De Hammer, Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'a nos jours, traduit de l'allemand par JJ. Helbert, t. 3, p. 252, Paris, 1836.

ومن جهة اخرى تميز النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي في حوض البحر الابيض المتوسط الشرقي بصعود العثمانيين المذهل وعزيمتهم السياسية للاستيلاء على كل الدويلات " الاميرية الاوروبية" في فترة زمنية أظهرت فيها بيزنطا انحلالا وضعفا في مقاومتها للعثمانيين. وقد ساعدت كل هذه العوامل العثمانيين ان يتمتعوا بسمعة المحاربين الاشداء والعنيدين، وهو الامر الذي كان له الصدى الطيب في العالم الاسلامي يومئذ وخصوصا بمصر التي اتخذت منها القوافل التجارية والحجيج منطلقا سنويا للتحول الى الاماكن المقدسة . على أن مصر تعد بالفعل محطة تجارية وثقافية حيث تتبادل فيها كل البضائع والآراء والثقافات والمعتقدات بحرية كاملة (9). وبالاضافة الى ذلك وجب ملاحظة وجود العنصر العربي في الجيش العثماني منذ عهد اروخان ومراد (10) والدفاتر العدلية لمدينة بروسة (11) تسجل لنا عشرات المغاربة والمشارقة وحتى الموريسكيين - الاندلسيين الذين كانوا يعيشون ومستقرين بالعاصمة العثمانية بورسة قبل فتح القسطنطينية.

هل أظهر السلطان محمد الفاتح من خلال مواقفه المتعددة وتصوره للقضايا واختيارات حاشيته، اهتماما يمكننا وصفه "بالاتجاه العربي" ليترجم ذلك عن تعلقه الروحي بمصدر الوحي للدين الاسلامي، هذا الدين الذي دافع عنه بكل بسالة وشجاعة اكثر من اي شخص آخر؟ هل كانت له أطماع سياسية في المنطقة خصوصا اذا اخذنا بالاعتبار شهادة البندقي لنقوشي (Langhushi) الذي ذكر عنه " ان الامبراطورية العالمية يجب ان تكون واحدة، ولها دين واحد وشخص واحد ليحقق هذه الوحدة وأنه لا يوجد غير استانبول لتنفيذ ذلك" (12).

لا شك لدينا اننا امام سلطان شاب لم يتجاوز سنه الواحد والعشرين، طموح ومتحرك وله مشاريع عديدة ويتمتع بحس المغامرة وله معرفة جيدة بالغرب، بفضل عدد من " المتعاونين الايطاليين" الذين امدوه بشبكة من المعلومات عن " الغرب ووضعيته الجغرافية والسياسية ومعتقداته

----

(9) كان المؤرخون المصريون الذين عاشوا في هذه الفترة الزمنية مثل ابن التغرى والبردي والسيوطي وابن اياس، قد مدحوا بداية العثمانيين وقد الحوا على طابع الجهاد الذي تزعموه ونادوا به، وعلى الاخص بعد فتح القسطنطينية وحيث عد محمد الفاتح كاكبر السلاطين العثمانيين.

(10) Halil Inalcik " Arab" Camel Drivers in Western Anatolia in the Fifteenth Century" in, Les Provinces arabes et leurs sources documentaires à l'époque ottomane, t. 3, p. 269, Tunis, 1984.

(11) د. خليل الساحلياوغلو، " من سجلات محاكم الشرع في بورصة : مقاربة في تركيا في اواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر" في المجلة التاريخية المغربية، عدد 3 ، ص 47 - 50 .

(12) د. برنار لوي، استانبول وحضارة الخلافة الاسلامية، تعريب سعيد رضوان علي، ص 49، الرياض، 1982.

وخلافاته الدينية وعساكره وفنونه الحربية" (13). وعليه فلا غرابة ان كان السلطان محمد الفاتح يتابع عن كثب الوضعية السياسية للبلاد العربية، وهي المجاورة له، هذا فضلا عن منحه مكانة خاصة للاسلام، كدين للدولة الجديدة. وقد احاط نفسه بعدد من الاطباء والعلماء والفقهاء العرب وهذا ما جعله يمارس، نتيجة لذلك ، سياسة صداقة وتعاون وانفتاح. ولا شك ان اتقانه " بالاضافة الى اللغة التركية، العربية واللاتينية والفارسية وحتى الكلدية" (14)، قد ساعده على تحقيق تلك السياسية. فقد قام بتعيين علي العربي رئيسا لاكبر مدرسة (15) وفي مناسبتين اثنتين رفع علاء الدين العربي الى رتبة الافتاء (16)؛ كما نلاحظ وجود احد أطباء القدس العرب الى جانبه (17)؛ ومن جهة اخرى فان احد العلماء السبع الذين تميزوا في عصر محمد الفاتح، كان عربيا وهو حكيم عُرّب (18)؛ وبالاضافة الى ذلك فان عددا كبيرا من المؤرخين الاتراك قد حرروا رسائلهم بالعربية او الفارسية وان احدهم ذهب حتى الى استعمال الشعر الملحمي بالعربية ثم ليترجم بعد ذلك الى التركية" (19) ؛ وفي هذا السياق فان آخر صدر اعظم له ، كان قد حرر " تاريخا للامبراطورية العثمانية باللغة العربية " (كذا) (20).

اما العالم اق شمس الدين الذي لعب دورا حاسما قبل وبعد فتح القسطنطينية لدى السلطان محمد الفاتح، فانه كان يتردد على حلب لحضور محاضرات الشيخ الحافي، احد اساتذتها المرموقين (21)، وهذا ما يترجم على مدى التأثير الثقافي والديني المتبادل بين رجالات الدولة العثمانية والبلاد العربية وحيث نلمسه في العديد من المستويات العربية والعثمانية.

فالنشاط الذي قام به العثمانيون الاول لفائدة الدين الاسلامي ، كان حاسما على المستوى المحلي والاوروبي على حد سواء، ولم يستثن محمد الفاتح في هذه القاعدة، فتربيته كانت في محيط " ديني" وهذا ما جعله " احد المدافعين المتشددين للدين الاسلامي، إن مواقفه وأفكاره ونشاطه

----

(13) T. Babinger, Mehmed II, le Conquérant et son temps (1432-1581), traduit par H.C. Medico, p. 142, Paris, 1954.

(14) هامر، نفس المصدر، ج 3 ، ص 293.

(15) المصدر نفسه، ص 311 .

(16) المصدر نفسه، ص 335 يعده هامر مع ابن مغنية " من اكبر علماء عصر محمد الفاتح" .

(17) بابنقر، نفس المصدر، ص 546 .

(18) هامر، نفس المصدر، ص 334 .

(19) M. Maschopoulas, " La prise de Constantinople selon les sources turques", in Le cinq centième anniversaire de la prise de Constantinople, p. 24, Athènes, 1953.

(20) بابنقر، نفس المصدر، ص 564 .

(21) هامر، نفس المصدر، ص 335 .

طوال كل حياته ، قد طبعت بطابع عقيدته؛ وادارته هي الاخرى قد تاثرت مباشرة" بهذا المدافع عن الاسلام وهو الذي يعتبر سندا للمسلمين" (22) بل انه ذهب الى اكثر من ذلك بجمعه الشيوخ والفقهاء " حيث كان يجد متعة لمناقشتهم حول الامور الدينية" (23). على ان سياسته الحكيمة وقدرته على تسيير الدولة ونبوغه العسكري " قد ترك غيره من الحكام مجهولين من طرف معاصريه" (24). الا ان الوضعية السياسية سوف تمنحه الفرصة الذهبية لترسيخ سمعته كأول منتصر مسلم على بيزنطا.

سوف لن نثير هنا كل مضاعفات فتح القسطنطينية ولا استعدادات الطرفين المتحاربين ولا الوضعية السياسية ومختلف العوامل التي ساعدت على تحقيق هذا النصر العسكري ، ذي البعد التاريخي الخطير والكبير جدا (25). الا اننا نؤكد على الصفات العسكرية لهذا السلطان الشاب ذي المشاريع العديدة والجريئة والذي لا يعرف التردد اليه سبيلا، هذا فضلا عن صفاته كشخصية طلعة ويحب الادب والذي بفضل ذكائه استطاع ان يتوفر على معلومات ثمينة جدا عن عدوه. وقد مكنه ذلك ولا شك من انضاج خطته الهجومية بدراسته لرسم اسوار المدينة وخطوطها الدفاعية والاماكن التي وجب السيطرة عليها ووضع المدافع والباطريات والالغام وقتئذ. ويمكن ان يكون محمد الفاتح قد بدأ، قبل ذلك، بالاهتمام وبعمق في دراسة المؤلفات الغربية العسكرية والتي تناولت بناء القلاع ومواقع مدافع الحصار" (26). وعليه فان الدخول في مشروع بناء قلعة جديدة على البوسفور لم يكن اعتباطيا . وقد صمم ان تكون هندسة هذا البناء على شكل الحروف العربية التي يتالف منها اسم الرسول، كما وأذن ببناء " برج في المكان الذي يشكل فيه الحرف دائرة في الكتابة العربية" (27).

ان محمد الفاتح الذي كان يشعر تماما بالاهمية السياسية والدينة والتجارية للقسطنطينية، قد وضع كل همه لتحقيق هذا النصر. وكان يعلم مسبقا ان العرب لم يوفقوا ، خلال صراعهم الطويل مع بيزنطا، من فتح القسطنطينية على الرغم من محاولاتهم الاحد عشر (28) ، وحيث اصبحت

----

(22) المصدر نفسه ، ج 3 ، ص 146 - 147 ، من رسالة وجهها الى ابنه مصطفى.

(23) المصدر نفسه، ج 3 ، ص 39 .

(24) بانقر، نفس المصدر، ص 97 .

(25) راجع الفصل الأخير من كتاب :

Ostrogorsky, Georges, Histoire de l'Etat Byzantin, pp. 490-595, Paris, 1969.

(26) باينقر، نفس المصدر، ص 106 .

(27) هامر، نفس المصدر، ج 2 ، ص 375، يذكر المؤلف ان هذين " البرجين قد وضعا جنبا الى جانب في اسفل الجبل، اما الثالث وهو اضخمهما فخطط لاقامته على الجانب البحري : اما الحروف O.H.E.D ، فقد احترمت ابجديتها العربية بواسطة ستائر واشغال اخرى حيث كان السلطان يشرف عليها بنفسه".

(28) محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق د. حسان حقي، ص 164 ، بيروت، 1981 ، .../...

بيزنطا " بالنسبة للعرب" ولدولة الاسلام، دار الحرب (29). ان بيزنطا والقسطنطينية تحتلان بالفعل في كتب التاريخ والتراجم العربية مكانة واسعة خاصة وان مؤرخي العصور الوسطى ، قد اهتموا بذلك دون استثناء. بل ان الاسطورة ذهبت الى ذكر عدد من الاحاديث المنسوبة الى الرسول (صلعم) حول سقوط القسطنطينية نذكر منها : " ان أفضل الامراء من يحقق هذا الفتح وجيشه سيكون احسن الجيوش" (30). ثم ان موت ايوب احد اصحاب الرسول، قرب القسطنطينية، قد منح هذه الاحاديث شيئا من القدسية والاحترام، خاصة اذا رافق ذلك نبأ اكتشاف قبره ايام الحملة. وهو الامر الذي جعل الشيوخ يعملون على شد أزر المقاتلين في المعسكرات " وتذكيرهم بواجب القتال دفاعا عن الدين". ولا شك ان الدور الذي اداه شمس الدين من خلال خطبه، حاثا الجنود على مزيد من البذل، كان حاسما في هذه المعركة التاريخية (31)؛ والذي يؤكد هذا التوجه هو وضع السلطان محمد الفاتح " حجر الاساس لمسجد ايوب" (32) في هذه الفترة الزمنية بالذات.

وبعد استيلاء العثمانيين على القسطنطينية ، اصبح السلطان " اصغر فاتح جلس على عرش القياصرة : وانتصاره في هذه الحرب المقدسة تجاوز كل الخلفاء والامراء المسلمين من قبله ، واصبح بذلك يتمتع بسلطة مطلقة" (33). ووفقا لذلك فان عهدا جديدا فتح في العلاقات بين الدولة العثمانية الناشئة والدول العربية التي تشكل بالفعل قلب العالم الاسلامي.

فانجازات السلطان محمد الفاتح بعد انتصاره، كانت ذات دلالات كبيرة، وقد تحدث كاتب جلبي عن الخطة التي وضعها لاعادة تعمير القسطنطينية والتي تركها الاهالي اثناء الحملة . وقد أطلق

.../... راجع أيضا : هامر، نفس المصدر ، ج 2 ص 394، ذكر بالمحاولات السبع، حيث استمرت احداها سبع سنوات اضطر الجيش الاسلامي ان يقوم بحراثة الاراضي المجاورة ليتم زرعها وحصاد منتوجها بعد ذلك. وأثناء هذه الحملة هلك الصحابي ايوب، حامل لواء الرسول".

(29) Bernard Lewis " Constantinople and the Arabs, in, The Fall of Constantinople, p. 12, Londres, 1955.

(30) هامر، نفس المصدر، ج 3 ، ص 394.

(31) خليل اناليك، نفس المصدر، ص 217، راجع الرسالة المحررة باللغة التركية والتي حررها اق شمس الدين ووجهت الى السلطان لمعرفة مدى الدور الكبير الذي اداه في الحياة السياسية والدينية للدولة العثمانية. راجع ايضا ، هامر، نفس المصدر، ج 2 ، ص 414 حيث الح المؤلف على دور الشيوخ وعلى الخصوص اق شمس الدين لحث " المسلمين باسم الرسول وحامل لواء رايته أيوب ، ان يرفعوا رايات الاسلام على شرفات مدينة الكفار". راجع كذلك، توركوغا، نفس المصدر، ص 69، مذكرا ان اق شمس الدين هذا، قد وضع على راس السلطان قنزعة بها ريشتان سوداء وبيضاء مخاطبا اياه " يا سلطاني، لقد اصبحتم اليوم فخر السلالة العثمانية، فحاربوا باسم الله من اجل اعلاء العقيدة الاسلامية".

(32) هامر، نفس المصدر، ج 2 ، ص 17 .

(33) Halil Inalcik, The Ottoman Empire: The Classical Age (1300-1600), p. 26.

عليها رسميا ابتداء من الآن استانبول اي " قبلة الاسلام". وقد خصص احد الاحياء لكل الاقليات ومنها الاقلية العربية التي جاءت من عكا والرملة وحيث استقرت في دائرة ما اطلق عليها " تحت القلعة" (34)، وان النساء العربيات اصيلات " عكا وغزة والرملة والحوران تزوجن الجنود المسلمين لغرض تعمير مدينة استانبول" (35). بل ان محمد الفاتح قد وجه مبعوثين الى كل زعماء المسلمين يومئذ (36) ، أحاطهم فيها علما ليس فقط بفتح القسطنطينية، بل قدم لهم معلومات متنوعة ومفيدة جدا تستحق ان نتوقف عندها لدراسة التوجهات الكبرى لسياسة محمد الفاتح وخلفية تحركه السياسي نحو سلطان مصر اينال (37) وخاصة نحو شريف مكة.

ففي رسالته للسلطان اينال، استعمل السلطان الشاب محمد الفاتح اسلوب التحريرات الديباجية التي كثيرا ما تستعمل في مثل هذه المناسبات وهو الاسلوب الذي يترجم، في حالتنا هاته، عن كثير من التقدير والاحترام نحو مصر ذات التاريخ العريق ، والتي كانت تتمتع بعلاقات طيبة مع السلاطين العثمانيين الاول. وقد بدا محمد الفاتح كاحد المسؤولين المواكبين للساحة السياسية العربية وعلى الاخص للوضعية الداخلية المصرية . على ان ارتباطه بالدين الاسلامي سوف تعكسه رسائله التي وجهها الى رؤساء العالم الاسلامي والتي عكست مدى حرصه على تامين حركة " الجهاد" التي بداها اجداده ومن سبقه من السلاطين (38) وان الوضعية التي سوف يجابهها سوف تعرضه، اكثر من اي مسؤول آخر، الى ادراك ذلك. على ان العرض الذي قدمه في رسائله لفتح القسطنطينية يستحق منا ان نوليه اهتمامنا. فبعد ان استعرض الاستعدادات العسكرية الضخمة التي اتمها والمعارك الحربية التي خاضها الجيشان، يعترف بشجاعة وبسالة جيوش الاعداء للدفاع، وبشراسة عن مدينتهم وتراثهم ودينهم خلال اربع وخمسين يوما وليلة :

---

(34) توركوفا، نفس المصدر ، ص 71 ، فان تحت القلعة عبارة عن " شارع قرب البازار المصري بين الجامع الجديد وجامع السليمانية".

(35) المصدر نفسه .

(36) هامر، نفس المصدر، ج 3، ص 146 ، قدم الرقم: 25 رسالة ومنشورا سياسيا منسوبة الى السلطان محمد الفاتح، والتي نشرها فريدون بك، رئيس افندي بادئ الامر ثم رئيس قسم الاختام. وقد جمعها بعد قرن من الزمن . والملاحظ ان خمس او ست رسائل فقط هي التي حررها السلطان بنفسه. والبقية فقد حررها كوراني احد كبار علماء عصره، راجع ايضا، بابنقر، نفس المصدر، ص 146.

(37) وجب ملاحظة الفرق الكبير بين سن محمد الفاتح الذي لم يبلغ بعد 21 سنة، والسلطان اينال الذي اشرف على 73 سنة.

(38) المكتبة البريطانية OR, 61 ، نص الرسالة الاولى الموجهة من السلطان محمد الفاتح الى سلطان مصر اينال، راجع الوثيقة رقم 1 اثر هذه الدراسة.

"وحاربناهم وحاربونا وقاتلناهم وقاتلونا وجرى بيننا وبينهم القتال اربعة وخمسين يوما وليلة" (39). وقد لمح السلطان محمد الفاتح للاعانات الاوروبية التي وصلت، ذاكرا اصلها ومصادرها قصد مساعدة البيزنطيين ضد هجوم الجيش العثماني. ثم تعرض في رسائله الى موقف اهالي غلطة والذين طلبوا قبل الحرب، عقد الصلح معهم وقد وافقهم عليه محمد الفاتح . الا انهم اثناء العمليات العسكرية، خانوا عهدهم وانضموا الى الجيش البيزنطي، وعلى الرغم من هذا الموقف المتلون، فان السلطان الشاب بدا متسامحا وعفى عنهم (40).

ان محمد الفاتح الفخور بهذا الانتصار العسكري الحاسم، كان يعده اهم انتصارات المسلمين على الاطلاق، وعلى إثر ذلك قام باعلام سلطان مصر بان " صيرنا معابد عبدة الاصنام، مساجد اهل الاسلام، وتشرفت تلك الخطة بشرف السكة والخطبة" (41). ولاداء هذه الوظيفة اختار : " ناقل ورق الدعاء، فخر الاماجد المجاهد امير جلال الدين القابوني" (42) راجيا " طيبات أدعية تلك المساكن الطيبة" وتمتين العلاقات بين الدولتين.

الا ان الذي شد انتباهنا في هذه المراسلات على الصعيد التاريخي، هي رسالة محمد الفاتح الى شريف مكة والمدينة (43) والتي بالاضافة الى نبإ فتح القسطنطينية الهام، كانت تهدف الى الاعتراف بهذا السلطان الشاب على المستوى الديني - الاسلامي. ولعل هذه المرة الاولى التي يوجه

---

(39) راجع النص الاصلي لهذه الرسالة التي اكتشفناها في المكتبة البريطانية، وحيث نلاحظ وجود بعض الاختلافات من حيث الاستعمال اللغوي وقد لمحنا الى ذلك في تحقيق هذه الرسالة.

(40) جاء النص الاصلي لهذه الفقرة بما يلي : " ومنها قلعة افرنجية جنوزية وهي المحصنة المدعوة بقلعة غلطة، وهي جارة لها متسقة النظام مملوءة من المشاركين القيام. فلما حاصرها قسطنطينية جاءنا اهل تلك القلعة وشددوا بنا ميثاقهم وجددوا وفاقهم وقلنا لهم كونوا كما كنتم واثبتوا على ما انتم عليه بشرط ان لا تعينوا، فقبلوا شرطنا واطاعوا امرنا. فلما وقع ما وقع على قسطنطينية وجد بين القتلى والاسرى من اهل غلطة وهم حاربونا. وبدا انهم نقضوا ميثاقهم واظهروا نفاقهم. فاردنا ان نفعل بهم ما فعلنا بالاخرين. فبينما هم جاؤوا مبتهلين ومتضرعين وقالوا ان لم ترحمنا لنكونن من الخاسرين. فعفونا عنهم إنه العفو الغفار (كذا)".

(41) المصدر نفسه، راجع النص لهذه الرسالة المنشورة اثر الدراسة .

(42) لم نعثر على معلومات بيبليوغرافية حول هذه الشخصية في المصادر العربية والتركية التي بحوزتنا . ويبدو انه عسكري وساهم في الحملة على القسطنطينية. ولا شك ان الهدف من اختيار احد العسكريين كمبعوث ، يعكس حرص السلطان على نقل صورة تقريبية للمعارك الطاحنة التي دارت رحاها، وهذا هو الامر الذي سر له السلطان اينال حيث اكرم وفادة المبعوث العثماني وعبر عن سروره لذلك.

(43) Rentz G, " Barakat" in, Encyclopédie de l'Islam, T. 1, p. 1064.

حيث قدم المؤلف معلومات من عائلة عجلان التي كانت تتمتع بامتياز الاشراف على الحرمين الشريفين ثم من علاقاتها مع السلاطين المماليك، راجع ايضا Islam Ansiklopedisi ، (باللغة التركية) ج 4 ، ص 148 ، مقال من تاريخ مكة .

فيها سلطان عثماني رسالة الى مسؤول عربي هو شريف مكة خلال سنة 1453 وحررت بالعربية وفي اسلوب أدبي رائع ، وهي رسالة تترجم بدقة عن هذه الخطة القاضية ليس فقط بالاتصال بشريف بل ايضا بالشيوخ والعلماء والزهاد والنظار وخدام الحرمين الشريفين وكذلك الفقراء والمعوزين.

وقد وصف السلطان محمد الفاتح شريف مكة في هذه الرسالة " بأمير المسلمين وولي المؤمنين" و " سلطان بيت الله" و " علاء الله والدين" وهي صفات تمنح عادة الى اعلى سلطة دينية في العالم الاسلامي. ويمكن تفسير هذا التحرك على مدى ارتباطه الديني والروحي للاسلام وحرصه على ارضاء الاوساط الدينية المكية ودعمهم وتأييدهم لشخصه وسياسته؛ وبالاضافة الى ذلك كان محمد الفاتح يسعى ايضا الى تقنين نشاطه وفعالياته في اعين المسلمين الذين يلتقون بمناسبة الحج. ولنا ان نتساءل هل كان محمد الفاتح يخطط لتقلد مسؤولية دينية على مستوى العالم الاسلامي ونعني بذلك الخلافة؟ اننا نذهب الى هذا الاعتقاد. على ان الذي يؤكد هذا التوجه " هي مجموعة من الاشارات الدالة عليه". ومن ذلك حرصه ان يجعل من استانبول مقر الخلافة وهي : " مهياة بأمر الله لمقر الخلافة الاسلامية" كما جاء ذلك في رسالته الى شريف مكة (44).

فبعد ان قدم صورة مؤثرة لفتح القسطنطينية والتضحيات الكبيرة التي تحملها العثمانيون لتحقيق هذا النصر، احاط مخاطبه الحجازي، شريف مكة، انه اختار الحاج محمد الزيتوني (45) كمبعوث اليه، حاملا له : " هدية لكم خاصة الفي فلورى من الذهب الخالص التام الوزن العيار، والمأخوذ من تلك الغنيمة وسبعة آلاف فلورى اخرى للفقراء منها الفان للسادات والنقباء والف للخدام المخصوصة بالحرمين والباقي للمتمكنين المحتاجين في مكة المعظمة والمدينة المكرمة زادهما الله شرفا. فالمرجو منكم التقسيم بينم بمقتضى احتياجهم وفقرهم واشعار كيفية السير الينا وتحصيل الدعاء منهم الينا باللطف والاحسان ...." (46).

وقد قام شريف مكة بتحرير رد على رسالة السلطان محمد الفاتح، نتوقف عنده قليلا لدراسة خليفة مواقفه، ورأيه تجاه هذه الدولة العثمانية - الاسلامية الصاعدة وعلى الخصوص تجاه السلطان نفسه وحيث وصفه بأنه " معين الاسلام والمسلمين، وسلطان الملوك والسلاطين، ونور عيون المجاهدين، ونور حدائق لطف الله في الارضين ... محيي الشريعة المحمدية، منجي الملة الاحمدية،

---

(44) كما يبدو لنا من كل هذه القرائن ان فكرة الخلافة قد جالت في ذهن هذا السلطان الشاب قبل دخول العثمانيين بلاد الشام ومصر في اوائل القرن السادس عشر.

(45) هل هو احد اقطاب الشافعية بمصر (1425 - 1518) الف كتابا حول الفقه والشعر، راجع عمر كحالة ، معجم المؤلفين ، ج 11 ، ص 218 .

(46) راجع النص الاصلي للرسالة، المنشورة اثر الدراسة .

الفائق على اسلافه بالغزو والجهاد، المباهي بين اقرانه بالفتوح وتسخير البلاد... (47).

وحتى يكسب هذه المهمة قيمتها الرمزية والتاريخية، فان شريف مكة فتح رسالة السلطان محمد الفاتح " بالاجلال والتكريم" وفتحناها بكمال الادب وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين اهل الحجاز وابناء العرب ..." (48) . بل ان الشريف عجلان اطرى في رده، متحدثا عن القسطنطينية وضواحيها وحيث "متانة حصنها مشهورة بين الانام وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام وحمدنا الله بتيسير ذلك الامر العسير وتحصيل ذلك المهم الخطير ..." (49).

وقد تعرض شريف مكة الى المبلغ المالي الذي اهداه السلطان محمد الفاتح من غنيمة الفتح واحاطه علما بانه عمل " حسب الاشارة الشريفة فقبض كل واحد من المستحقين كل القبض" (50). وحتى يظهر اخلاصه واستقلاله النسبي، كلف شريف مكة احد المبعوثين هو نجم الدين السيوطي للتحول الى استانبول " لتقبيل سادتكم السنية وتلثيم عتبتكم واتحفنا لخدمتكم برقع باب مكة المكرمة والاقمشة الهندسية المتنوعة سبع طقوزات وعشرين شاشاة المبلولة بماء زمزم" (51) . على ان الذي يلفت انتباهنا في هذه الرسالة هو عدم ذكر سلطان مصر ولو مرة واحدة ، مع العلم ان الحجاز يعتبر اداريا وسياسيا تابعا لسلطان المماليك بمصر . ومن جهة اخرى فان ردي سلطان مصر اينال على رسالتي محمد الفاتح ، يعدان مهمين جدا حيث عكستا اعجاب اينال للانجاز الذي حققه محمد الفاتح . فعندما وصلته انباء الانتصار العسكري على القسطنطينية ، بدت "البشائر بالقلعة ونودي في القاهرة بالزينة" (52) ، بل ان الشعب في عموم مصر قد اظهر السرور والابتهاج واقام الحفلات خلال أيام عديدة . ولا شك ان صدى هذا الحدث الخطير قد دوى صداه في كامل البلاد العربية وخصوصا في القاهرة حيث تحدث عنه كل المؤرخين باعجاب ونخوة وتمجيد .

اما السلطان اينال فقد استعمل في رده ديباجة ادبية وصيغا بلاغية ترجمت عن اعجابه بهذا السلطان الشاب وقد تخلل رده ، ذكر لآيات قرآنية واحاديث الرسول وابيات من الشعر ، وهو ما يترجم عن فرط سعادته. بتحرير رسالة مطولة ، استعرض فيها العلاقات الطيبة بين البلدين وكيف ان تعاونهما يفرض عليهما واجبات جديدة تجاه المجموعة الاسلامية . هذا وقد استقبل السلطان

----

(47) المصدر نفسه .
(48) المصدر نفسه .
(49) المصدر نفسه .
(50) المصدر نفسه .
(51) المصدر نفسه .
(52) ابي اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 2 ، ص 316 ، طبعة ثانية ، القاهرة 1984 .

اينال المبعوث العثماني بحفاوة بالغة وبالغ في اكرامه ووفادته احتراما لرتبته ومقامه . وفي نفس الوقت اخبر السلطان العثماني بان الاموال الموجهة الى الحجاز قد سلمت الى القافلة المصرية المتجهة الى الحرمين الشريفين .

وبالاضافة الى ذلك شكر السلطان اينال السلطان محمد الفاتح للهدية التي وجهها اليه . وقد امر ان يرسل مع المبعوث العثماني البرسباى الاشرفى ، هدية ثمينة جدا كتعبير للتقدير والاعجاب الذي يكنهما له . وفي نفس الوقت عبر عن الرغبة للمحافظة على حسن العلاقات وتمتينها ودعمها في جميع المجالات ، وهو الامر الذي حافظ عليه السلطان محمد الفاتح طوال فترة حكمه كلها .

* * *

الرسالة الاولى

وهي رسالة السلطان محمد الفاتح الى الملك اينال ، ملك مصر

بوفتح نامه يي سلطان محمد غازى فتح وتسخير قسطنطنية عزيز مصر اينال شامه كوندومشدر خواجى سي ملا كورانى انشاء سيله :

اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير. يحمد الله ويثنى عليه عبده المبتبشر بالمبشرات المتواردة المتواترة اللاتي ينبئن عن استقرار القدم المقدم المقدام على سرير السلطة السامية الباهرة بالدولة العالية القاهرة الا وهو السلطان الوالي العالي العاملى المؤيدى المظفرى الظهيري النصيرى العوني الغوثى الغياثي الامامي الهمامي النظامي الذي اشرقت من افق التوفيق شمس سلطنته وخفقت راية الاقبال من هبوب نسيم خلافته ويطاطا اعناق الجبابرة نحو سدته السنية ويتكاكا اقبال الاكاسرة على عتبته العلية وبه اضحت عقود الامامة منتظمة وامور السلطنة ملتئمة ويتفاخر بوصفه الماثر ويختال بذكره المفاخر اعنى المليكى الالطفى السلطاني الاشرفي الابوي الاعطفي ضاعف الله تعالى ملكه وسلطانه وافاض على العالمين بره واحسانه ولا برح في دولة لا تهدم دارها ونعمة لا تفصم اثارها وسعادة لا تصفر اوراقها. وما انفك لا يتغير افاقها (1) وما انفك بنود الدين بباهر صولته مرفوعة واسنة الحوادث في بحور اعدائه مكسورة وجماجم حساده على رؤوس الاسنة منصوبة وتحت الاقدام محفوظة، ويقول (2) لما تتابعت عندنا الاخبار التي تشتمل على سعود شمس

----

(1) في النص المطبوع : وسيادة لا تتغير آفاقها .

(2) في النص المطبوع : ونقول

السلطنة على اوج سرير الخلافة ادامه الله تعالى واعلاه وبارك فيه وابقاه ببركة نبيه المجتبى ورسوله المصطفى عليه وعلى آله من صلة الصلوات ازكاها، ملئنا بهجة وسرورا وغبطة وحبورا وانشدنا (3) بلسان صدق :

هنيئا لمصر انت صرت عزيزه	بلوغ الاماني وابتغاء المحامد
ويعتدل الايام فيها ويقتفي	صنوف البرايا منه طرق الفوايد
فمنذ ظهرت فيها علايم باسمكم	قد التطمت منها رسم المفاسد

هذا وان الولاء والمواصلة بين من تكفل بمؤونة احياء نسك الحج للعباد وبين من تحمل بمشاق تجهيز اهل الغزو والجهاد كما هو المتوارث من الاباء والاجدا د انعمهم الله نعم الموعود في المعاد. فالقلب مصمم على تأييد تلك القديمة بسلوك طرائق تنسى لطايف آخريها بطيب نعيمها لذايذ اوليها، فبهذا الحبل المتين نحن ماسكون وعلى هذا الصراط المستقيم سالكون (4)، فشددنا وثاق صدق ذلك المقر العالي اعلاه الله واسماه وفتحنا ابواب المراسلة وقدمنا اسباب المواصلة واهدينا طرايق التسليمات السليمات عن شوائب الربا والرعونات واتحفنا لطايف التحيات المنورات بنور الاخلاص المحلات بالولاء والاختصاص المزهرات بصدق الطوية رياضها المترعات من زلال المحبة حياضها ورفعنا الادعية الصالحة المستجابة والاثنية الفايحة المستطابة المبالغة ذروة الكمال والاتواق المتوالية بالغدو والأصال وانهينا إلى العلم الكريم محفوفا بما يسر اليه تعالى من المطالب الهنية والمآرب السنية ان من احسن سنن اسلافنا رحمهم الله، انهم مجاهدون (5) في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. ونحن على تلك السنة قائمون وعلى تينك الامنية دائمون (كذا) وممثلين بقوله تعالى : " قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله" ومستمسكون بقوله عليه السلام: " من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار" فهمتنا في هذا العام، عمه الله بالبركة والانعام معتصمين (كذا) بحبل الله ذى الجلال والاكرام ومتمسكين بفضل الملك العلام الى اداء فرض الغزا (كذا) (6) في الاسلام، مؤتمرين بأمره تعالى : " قاتلوا الذين يلونكم من الكفار" ، جهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر لفتح

---

(3) في النص المطبوع : وانشر

(4) تتضح لنا على ضوء هذه المراسلة الاولى الموجهة لسلطان مصر خلفية تحرك السلطان الشاب محمد الفاتح ومدى التأثير العميق والحاسم الذي احدثه في نفسه بدايات الدولة العثمانية، وهي البدايات التي اتسمت بحركة الفتوحات والمواجهات والحروب بانتصاراتها وانتكاساتها.

(5) اعتبار السلاطين العثمانيين الاول كمجاهدين من طرف محمد الفاتح، يترجم عن " التوجهات الاسلامية" التي بررت تحركه ليس فقط اثناء فتحه للقسطنطينية ، بل طوال فترة حكمه كلها والتي اتسمت بذلك وحيث لم يحد عنه تماما.

(6) تتويجا للملاحظتين السابقتين، نرى كيف ان عملية الغزو والفتح اخذتا حيزا واضحا في سلوك وتحرك محمد الفاتح.

مدينة ملئت فجورا وكفرا، التي بقيت وسط الممالك الاسلامية تباهي بكفرها فخرا:

فكانها حصف على الاخذ الاغر   وكانها كلف على وجه القـــمر

وهي محصنة صعب المرام شامخة الاركان راسخة البنيان مملوءة (7) من المشركين الشجعان (8) خذلهم الله اينما كانوا وهم مستكبرون على اهل الايمان متناصرون بالجزيرة (9) الغربية مثل رودوس وقطلان ووناديك (10) وجنويز (11) وغيرهم من اهل الشرك والطغيان وحصن محصن مسدد مشدد مشيد منسق النظام، ما ظفروا به اسلافنا العظام، هؤلاء السلاطين الاساطين الفخام مع انهم جاهدوا حق الجهاد ولم ينالوا بها نيلا، وهي قلعة عظيمة مشتهرة في السنة اهل الارض باسم القسطنطينية ولا تبعد من ان تكون هي التي نطق بها صحاح الاحاديث النبوية والاخبار المصطفوية عليه وعلى آله ثم الصلوة (كذا) والتحية فيفتحون قسطنطينية. فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون الحديث وغير هذا من الصحاح المشهورة هي هذه المدينة الواقع جانب منها في البحر وجانب منها في البر. فاعددنا لها كما امرنا الله بقوله: " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة" كل اهبة يعتد بها وجميع اسلحة يعتمد عليها من البرق والرعد والمنجنيق (12) والنقب (13) والملحور (14) وغيرها من جانب البر والفلك المشحون والجوار المنشآت في البحر كالاعلام من جانب البحر، ونزلنا عليها في السادس والعشرين من ربيع الاول من شهور سنة سبع وخمسين وثمانمائة (15):

فقلت للنفس جدى الآن فاجتهدى وساعديني فهذا ما تمنيت فكلما دعوا الى الحق اصروا واستكبروا وكانوا من الكافرين. فاحطنا بها محاصرة وحاربناهم وحاربونا وقاتلناهم وقاتلونا وجرى بيننا وبينهم القتال اربعة وخمسين يوما وليلة :

اذا جاء نصر الله والفتح هينا   على المرء مسعور الامور وصعبها

---

(7) تؤكد المصادر الغربية والتركية ان استخبارات محمد الفاتح عن اعدائه ، كانت دقيقة وصحيحة وشبكة معلوماته عن القسطنطينية هي التي برزت نوعية الاستعدادات الحربية التي أمنت له النصر.

(8) ان يعترف السلطان محمد الفاتح بشجاعة جنود الاعداء، فهذا امر جدير يلفت الانتباه اليه ولا تصدر مثل هذه الاعترافات الا من خابر المعارك الحربية وابطالها.

(9) على الرغم من عدم تحديد اماكن هذه الجزر، إلا أنه يبدو ان المقصود بها كل الجزر التابعة في فلك السياسة البيزنطية.

(10) اي البندقية.

(11) اي جنوة.

(12) وهي عبارة عن آلة حربية تستعمل لقذف الاحجار الكبيرة من بعد.

(13) النقب حسب بعض القواميس أي الالغام .

(14) لم نعثر على تعريف لها ولكن سياقها بعد ذكر نوعين من آلات الحروب، يدل على نوع آخر من ادوات الحروب.

(15) 6 افريل 1453 .

فمتى مطلع الصبح الصادق من يوم الثلثاء (كذا) يوم العشرين من جمادى الاول، هجمنا مثل النجوم رجوما لجنود الشياطين سخرها الحكم الصديقي ببركة العدل الفاروقي بالضرب الحيدرى (16) لآل عثمان، قد من الله تعالى بالفتح بكرئذ قبل ظهور الشمس من مشرقه (17) " فيهزم الجمع ويولون الدبر، بل الساعة موعدهم والساعة ادهى وأمر" وأول من قبل وقطع راسه تكفورهم (18) اللعين الكنود فاهلكوا كقوم عاد وثمود فحفظتم ملائكة العذاب فاوردهم النار وبئس المآب، فقتل من قتل واسر من بقي، غاروا خزاينهم واخرجوا كنوزهم ودفاينهم موفورا فاتى عليهم حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا" فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. فيومئذ يفرح المؤمنون بنصر من الله ينصر من يشاء. فلما ظفرنا على هؤلاء الارجاس الانجاس الحالوس ظهرنا القوس من القسوس واخرجنا منه الصليب والناقوس وصيرنا معابد عبدة الاصنام، مساجد اهل الاسلام وتشرفت تلك الخطة بشرف السكة والخطبة (19). فوقع امر الله وبطل ما كانوا يفعلون وبعد فكانت في شط الشرم الذي يكون شماليا منها قلعة افرنجية جنوزية وهي المحصنة المدعوة بقلعة غلطة وهي جارة لها متسقة النظام مملوءة من المشركين الليام، فلما حصرنا قسطنطينة، جاءنا اهل تلك القلعة وشددوا بنا ميثاقهم وجددوا معنا وفاقهم وقلنا لهم كونوا كما كنتم، واثبتوا على ما انتم عليه، بشرط ان لا تعينوها. فقبلوا شرطنا وأطاعوا امرنا فلما وقع ما وقع على قسطنطينية وجد بين القتلى والاسرى من اهل غلطه وهم حاربونا، وبدا انهم نقضوا ميثاقهم وأظهروا نفاقهم. فأردنا ان نفعل بهم ما فعلنا بالآخرين. فبينما هم جاؤا (كذا) مبتهلين ومتضرعين، وقالوا : ان لم ترحمنا لنكونن من الخاسرين. فعفونا عنهم انه هو العفو الغفار، ومننا عليهم المنة لله الواحد القهار، وقررنا على ملكهم، الملك لله العزيز الجبار، ولكن جعلنا حصنهم صعيدا جزرا بحيث لا يرى فيها عوجا ولا امتا وملكنا ارضهم وماءهم وكتبنا في جريدة الجزى اسماءهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا ان هدانا الله :

سعد الزمان وساعد الاقبال　　　ودنا المنى واجابت الأمال

----

(16) اي ضرب الاسود، حيث ان كلمة الحيدري معناها الاسد وهذا خلافا لقاموس محمد زكي كالين :
Tarih Deyimleri Ve Terimleri Sözlügü
ج I ، ص 779 ، استانبول 1971 ، فان الحيدرى هو عبارة عن لباس داخلي تستعمله فرقة الباشكتاش.

(17) 29 ماي 1454.

(18) الامبراطور البيزنطي.

(19) المراجع التي تناولت موضوع الفتح عديدة وكثيرة ومتنوعة ولعل من اهمها كتاب الاستاذ الايطالي برطوسي :
Agostino Pertusi, La Caduta di Constantinopoli, 2 tomes, 1976.
Ismail Hakki Uzuncarsili, Osmanli Tarihi, 2e edition 7560, Tarih Kürümü, Ankara, 1988.

فلما جمع الله تعالى بفضله في قلب عبده زين السرورين العظيمين احدهما : حفظ نظام سرير السلطنة وحماية البلاد، والآخر : قرة لعين الشرع باحياء فرض الجهاد وجه تلقاء الارض المقدسة التي بارك الله فيها باجراء احكام السلطنة حامل وقر الثناء وناقل ورق الدعاء، فخر الاماجد ذخر المجاهد امير جلال الدين القابوني (20) وقت عودته بالسلامة بهدية يسيرة من الاساري والغلمان والاقمشة وغيرها حسبما ذكر مفصلا في كتاب غير هذا، وان كانت نسبتها الى ما وجب علينا كنسبة القطر الى البحر. فالمامول الاغضاء بحسن القبول، فاذا يسره الله التشريف بتقبيل بساط الخلافة (21) زاده الله بسطه بالعدل والنصر، يتعمل ويتمنى ان ينعم بالمشرفات السادة المحتويه بسلامة النفس النفيس الطيبة وصحة الذات المطهرة ابقاها الله في دولة دينية ودنياوية وبسوانح الاخبار من مهمات السلطنة، كما نتشرف بالانتماء الى ذلك المقر الشريف ونتلطف بالاعتزاز لذلك المجلس اللطيف، ونحن نترقب طيبات أدعية تلك المساكن الطيبة والله مجيبها ببركة نبيه المجتبى عليه في التحية ازكاها، الحمد لله على نواله والصلوة على محمد وآله والله اعلم بالصواب واليه المرجع والماب.

* * *

الرسالة الثانية

رد السلطان المملوكي اينال على رسالة السلطان محمد الفاتح :

ضاعف الله تعالى نعم المقر الشريف العالي المولدى الاولوي الكبيري العالمي العادلي المؤيدى العضدى الكهفى العونى الغياثى المكى السيدى الهمامي النظماتي القوامي المظفرى الذخرى المهدى المشيدى المجاهدى الثاغرى المرابطي الظهرى الناصرى، معز الاسلام والمسلمين، ناصر الغزاة ذخر المجاهدين ملجأ الفقراء والمساكين، زعيم جيوش الموحدين ممهد الدولة، مشيد الممالك، عماد الملة، حامي الثغور الاسلامية غياث الامة المحمدية، ظهير الملوك والسلاطين عضد امير المؤمنين، ولا زالت اخبار فتوحاته متواترة وركايب نصره في ساحة الوجود سائرة وعرصة الهيجاء قائمة، فالافلاك الدايرة تجرى بتاييده، فيجعل لاوليائه العقبى وعلى اعدائه الدائرة. اصدرنا هذه المفاوضة الى المقر الكريم مهنئة له بهذا الفتح الذي ادخره الله لايام سعده وهذا النصر الذي من الله به تعالى على المسلمين، وما النصر الا من عنده ونهدى اليه سلاما طاب نشره ووضح بشره وثناء

---

(20) لم نعثر في دور المعارف وكتب الاعلام المعروفة معلومات من هذه الشخصية.

(21) ان التلميح بالخلافة يرمز ولا شك الى المكانة السياسية التي كانت تتمتع بها مصر على صعيد البلاد الاسلامية واقرار محمد الفاتح بدور مصر في ذلك، وهذا على الرغم من عدم تحديد نوعية الطموحات الدينية التي كان يتطلع اليها السلطان محمد الفاتح، راجع دراستنا اعلاه.

ينشف الاسماع ذكره ونبدى لعلمه الكريم ان مكاتيبه الرفيعة التي جهز الينا على يد رسوله المجلس السامي الاميري الكبيري الذخرى العضدى المؤتمنى، الجمال يوسف القابوني الناصرى، احسن الله وفادته وبسر بالخير اعادته، وقفنا عليها وصرفنا وجه الاقبال اليها وسرحنا النظر في زهر الخمايل من سطورها وشرحنا الخاطر ببديع منظومها ومنثورها، ووجدنا لها محلا من البلاغة عاليا، لا يدرك ثناءه الاوهام ومنهلا من الفصاحة عذبا ازدحمت فيه غرايب المعاني، وانتهينا الى ما اشار اليه، فما يسر الله له من فتح قسطنطينية العظمى وما خصه الله تعالى به من ايات النصر ومنحه به من ألطافه الخفية وفهمنا ذلك مجملا ومفصلا ومفرعا وموصلا. وكررنا حمدا لله عز وجل على ما من به من هذا الفتح المبين وهذه النعمة التي تتضمن تثبيت قلوب المتقين على اليقين واعلاء كلمة الموحدين على الملحدين وهذه النصرة التي اصبحت بها كلمة الايمان منتشرة وجبهة الصادقين مبيضة وشفاه المسلمين بها ضاحكة مستبشرة ووجوه المشركين عليها غبرة ترهقها فترة أولئك الكفرة الفجرة. وقد اعدنا الجواب عن ذلك وعن جميع ما اشار اليه مفصلا على يد رسوله المجلس الجمالي المشار اليه اعلاه، كما سيحيط به علمه الكريم بعد ان عاملناه بمزيد الانعام ووافر الاحترام وافضنا عليه وعلى من به خلع التشريف والاكرام وانعمنا عليهم من مائدة الاحسان التام واعدناهم الى خدمتهم الكريمة على احسن الوجوه، واجمل الحالات. وجهزنا صحبتهم الواصل بهذه المكاتبة هو المجلس العالي الاميري الكبيري المويدى الذخرى الاعزى الاخصى المؤتمنى المقربى المنيفي برسباى الاشرفي احد امرائنا واوحد اخصائنا (22)، كتب الله تعالى سلامته وأدام سعادته وحملناه من السلام الوافي والاكرام الكافي ما هو اذكى من نشر الخزام وعن الحب الصافي والود الشافي ما لو تجد لكان اصفى من ماء الغمام ومن الصداقة والاخلاص والموالاة والاختصاص ما هو على ذلك شهيد وله مبدئ ومعيد، وجهزنا على يده من الهدية ما يؤكد اسباب الود والمحبة ويوثق عرى الاتحاد والصحبة كما هو دأب السالفين الاقدمين من الحكام والسلاطين وهي هذه : شرح هدايا :

سيف سقط ذهب وبدله مكاكين من سمك وسيولق	نمجا سقط ذهب	دبابيس يرد غانيات واطبار فولادي
يوقلان مخمل احمر بمسمار ذهب	مخمل احمر بصفائح ذهب سقط ذهب خاص	بركسطوان مخمل احمر بمسمار ذهب
سرج ذهب وعرقية زركش خاص	قاش اسكندري 010 قطعة	بندقي لهوعا

(22) لم نعثر على معلومات بيبليوغرافية عن هذه الشخصية.

كمخا بندقي حجون I : افيال 2 حمار وحشي I : ضمها دهن بلسان	تفاصيل اسكندرى 31 رصه زجاج ضمها دهن بلسان	خمول خاص مخول 3

فالمقر الكريم يامر بتسليم ذلك وقبوله ويشمل قاصدنا المشار اليه بحسن النظر ومثوله ويواصل باخبار المسرات وما يعين له من المهمات ليستر الموافاة من الجهتين، كما كان بيننا وبين اباته العظام وأجداده الكرام انار الله براهينهم مع الاتحاف بالمودات والاهداء بالمصافات والله تعالى يمتع الاسلام ببقائه ويجعل قواضيه القاضية محكمة في اعدائه حتى يصبح جنود الملة المحمدية بتوالي فتوحاته منصورة الاعلام وتصير البلاد كلها بعزمانه المؤدية دار السلام ان شاء لله تعالى، كتب في العشرين من شهر ذي القعدة الحرام سنة سبع وخمسين وثمانمائة من الهجرة النبوية.

* * *

الرسالة الثالثة

بوفتح نامه يي سلطان محمد غازى تسخير قسطنطنية ده مكة شريفنه صرة ثى فلورى معينة برله كوندر مشدر

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى ادام الله علو المقر الكريم السيدى السندى الاشرفي الشريفي الاكرمي الاعلمي الاورعي النظامي الامامي الهمامي الاوحدى العالمي العاملي الاعظمي الاولوي الاعلوي العلوي المشيدي المؤيدي النصيري الظهيري انطاهري، معلى قواعد الموسم والحرمين حامي مشاهد البقاع الشريفة والمروتين، مؤسم مراسم العظمة والجلال، مؤكد معاقد المقاصد والامال، مطلع لوامع العز والتمكين، مظهر ماثر الملك والدين، فلذة اكباد الرسول، زبدة احفاد البتول، امير المسلمين وولي المؤمنين، خلاصة اولاد شفيع المذنبين وهو السيد الشريف والقوم المنيف، سلطان بيت الله تعالى، شرفه الله وحواليه، علاء الملة والدولة والدين السيد العجلاني الاحسني زاد الله تعالى سعادته وادام سيادته ولا خلافى دولة لا ينهدم دارها ونعمة لا ينفصم أثارها ولا زالت اسباب مودته ومحبته مؤكدة وعقود موالاته وهمته منتظمة منضدة مدى الدهور والايام(23) بحرمة سيد الاولين والآخرين وآله وصحبه واجمعين الطيبين الطاهرين عليه الصلوة

---

(23) في انتص المطبوع : الاعوام .

والسلال وبعد، فقد ارسلنا هذا الكتاب مبشرا بما رزق الله لنا هذه السنة من الفتوح التي لا عين رأت ولا أذن سمعت وهي تسخير البلدة المشهورة بقسطنطينية الملاصقة بمرج البحرين وفي مقابلتها مدينة اخرى موسومة بغلطة وفي جانبها الشرقي بلدة اخرى معلمة باسكودار. اما الاولى فكانها ثعبان له سبع رؤوس من قللها المشهورة او تلك القلل سبع رواسي شامخات حصينة رفيعة مهياة بامر الله تعالى لمقر الخلافة الاسلامية ومرزوقة بتقدير الحكم السبحانية. ولا شك انها سلطان البلاد، والاخريان من جنبيها يمينا وشمالا كخادمين في طرقي السلطان. فلما توجهنا وعزمنا عليها. هجم علينا الكفار المملوة فيها خارجا وداخلا وحاربوا معنا فقام (كذا) المحاربة بيننا وبينهم قريب من شهرين بعد اباثهم عن اعطاء الجزية الشرعية، ثم عجزوا عن القتال وعربوا من الجدال، فازدحم اهل الاسلام وجاهد كل من المجاهدين عن البر والبحر حق الجهاد فقربوا من السور وصعد جمع كثير من الكماة الغزاة الموحدين فوق منافذ جدرانها المندرسة من المنجقين والعرادة، فدخلوا في نفس هذه البلدة المتبركة المنورة بقدوم الموحدين بالتكبير والتهليل يوم الثلاثاء العشرين من شهر جمادى الاولى، فقطع في مبدإ الحال رأس رئيس هذه الملاعين اعنى التكفور اللعين ولحق بجهنم مع سائر المقتولين المشركين فخرجوا دورهم وكسروا صلبانهم واغاروا خزاينهم واموالهم واسروا ذراريهم وصبيانهم، وجعلوا معابدهم القسيسية مساجد الامة المحمدية وجمع الملة الاحمدية، وطهر تلك المواضع عن الارجاس الرهبانية والانجاس النصرانية " فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين". واما بقية السيوف فعفونا عنهم وقطعنا عليهم الجزية السنوية، سعيا لبيت المال فلما تشرف منابر الخطب بشرف القابنا العلية الباهرة وتزين وجوه الدراهم والدنانير المسكوكة بزينة اسمائنا الجلية الطاهرة، جهزنا الى خدمتكم الشريفة فخر المقربين وزين حجاج الحرمين خواجه حاجي محمد الزيتوني (24) حفظه الله تعالى في الذهاب والاياب ورزقه الوصول والمعاودة بالخير والصواب لتبليغ الرسالة وترسيل البشارة.فالمامول من مقر عزكم الشريفة ان يبشش بقدوم هذه المسرة العظمى والموهبة الكبرى مع سكان الحرمين الشريفين والعلماء والسادات المهتدين والزهاد والعباد الصالحين والمشايخ الامجاد الواصلين والايمة الاخيار المتقين والصغار والكبار اجمعين المتمسكين باذيال سرادقات بيت الله الحرام التي كعروة الوثقى لا انفصام لها والمشرفين بزمزم والمقام والمعتكفين في قرب جوار رسول الله عليه التحية والسلام واعين لدوام دولتنا في العرفات، متضرعين من الله نصرتنا، افاض الله علينا بركاتهم ورفع درجاتهم بالنبي الانبيا (كذا) وآله وذويه، وبعثنا مع المشار اليه هدية لكم خاصة الفي فلورى من الذهب الخالص التام الوزن والعيار، الماخوذ من تلك الغنيمة وسبعة آلاف افلورى آخر للفقراء منها الفان للسادات والنقبا والالف للخدام المخصوصة بالحرمين والباقي للمتمكنين المحتاجين في المكة المعظمة والمدينة المكرمة زادهما

---

(24) لم نعثر على معلومات بيبليوغرافية عن هذه الشخصية .

الله شرفا. فالمرجو منكم التقسيم بينهم بمقتضى احتياجهم وفقرهم واشعار كيفية السير الينا، وتحصيل الدعاء منهم لنا دائما باللطف والاحسان ان شاء الله تعالى والله يحفظكم ويبقيكم بالسعادة الابدية والسيادة السرمدية الى يوم الدين آمين يا رب العالمين وصلى الله على خاتم الانبياء والمرسلين وآله وصحبه اجمعين.

* * *

الرسالة الرابعة

جواب ملك مصر اينال على رسالة السلطان محمد الفاتح :

أعز الله تعالى انصار المقرر الكريم العالي الكبيرى العالمي العادلي المجاهدى المرابطي الغياثي المهدي المشيدي الزعيمي الظهيري الناصرى معز الاسلام والمسلمين ناصر الغزاة ذخر المجاهدين ملجأ الفقراء والمساكين زعيم جيوش الموحدين، ممهد الدول، مشيد الممالك، حامي الثغور الاسلامية، غياث الملة المحمدية، ملك الملوك والسلاطين، عضد امير المؤمنين وهنأ بهذا الفتح الذي جاء الاطناب في بلاغة وجيزا (كذا) وابتهل كل موحد به واعلن بسورة الفتح وتلا " وينصرك الله نصرا عزيزا" لا زالت وجوه النصر تترى في مرآة صفاحه (كذا) وثمرات النصر تجبى من اغصان رماحه محروسة وفروض الجهاد بسيوفه المسنونة في كل وقت تقام وبلاده الاسلامية بالجناب المحمدى عليه السلام وهمزات عوامله بصدور الكفار موصولة والسن سيوفه بثغور بلادهم من رشف ارحاق دمائهم مبلولة وهمم ابطاله منتظمة في نصرة دين الله كالعقد النظيم " وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم" ولا برحت عزماته تجلى من اعداء الاسلام المعاقد وتحل منهم المعاقد وتحلوا عليهم مواقف الحرب مستقرة المواقد، وتطلع في سماء النقع من سيوفه نجوما وقادة، وتشهد على الكفار في محضر الغزو وما يعجز، وكيف لا وذاك الموطن محل الشهادة فهو بحمد الله ما سلك خلف الكفار برا " الا قالوا لقينا من سفرنا هذا نصبا" ولا خاض عباب بحر " الا اتخذ سبيله في البحر عجبا". اصدرنا هذه المفاوضة الى المقر الكريم معربة عما نحن منظوون عليه من التهاني بهذا الفتح الذي وضع على جبين الصباح بشره، ورجح ميزان على الكواكب قدره، ونخصه بسلام يتأرجح عرفا ويبتلج وصفا ويكاد يمازج النسيم لطفا وثناء وجلل ملابس الاكرام واضفى واعذب مواد الوداد واصفى، قد اتخذ نفحات المسك طليعة واجمل لرداء الملك توفيقه وتوسيعه وانتشر به بناء الحب الذي استودعه من صدور الرسائل يحفظ الله هذه الوديعة. ونبدى لعلمه الكريم ورود كتابه العظيم وخطابه الذي أزرى بالدرر النظيم على يد المجلس السامي الاميري الكبيري الاوحدى الاكملي المؤتمني المقربي الجمالي يوسف القابوني الناصري، احسن الله وفادته ويسر الى المقر الكريم اعادته فاكرمناه حين قابلناه ورفعنا محله لما تناولناه واستنشقنا المسك لما فضضناه وابتهجنا ابتهاج الضمان بوروده، ونظرنا

منه الى احسن من برود الروض اذا حل الندى ازرار وروده، فشممنا مخايل النصر من سطوره ونزهنا النواظر في رياض منظومه ومنثوره ، وتلمحنا من خطه وخطابه، ما هو ازهى من زهر الخمايل عند مر النسيم ووجدناه مشتملا على انواع البراعة مما وشى الرقيم محتويا على بديع الالفاظ التي سحبت ذيل البلاغة سحبان في الزمن القديم متضمنا بما من الله به ويسره على المقر الكريم من هذه النصرة على اهل الكفر والعناد وبلوغه من ارغام اعداء الله ورسوله بنى الاصفر، اقصى المواد وانتهينا الى ما اشار اليه من سيرة على القسطنطينية العظمى بعساكره الاسلامية وجنوده المحمدية، وانهم احد قوامها فكانوا لها اصفادا وزلزلوا ارضها بجياد خيل وقفت صابرة، فكانت اوتادا وانه ارسل اليها في البحر جوارى كالاعلام ومدنا في اللجج سوائر كانها معلقة بالايام، ورماها بفرسان من البر واقدم على منازلها بمن اطاع الله وبره وخطبها بكرا فتمنعت واطالت في التنحي، فترفعت. فلما تحققت عظم امرها في النفوس ورأفت كثرة ما القى اليها من نثار الرؤوس ضجت الى الاحسان بعد النشوز وعلمت ان الامتناع من قبول الاحسان لا يجوز، فامكنت زمامها، من يد خاطبها وامتعته على رغم انف مراقبها وانشد لسان الحال :

خطبتها بكرا وما امهرتها الا قنى وقواضبا وفوارســـا

من كانت السر العوالي مهره جلبت له بيض الحصون عريسا

الله اكبر ما جنيت ثمارها الا وكان ابوك قبلك غارســـا

هذه كله بعزايم لم يشبها في الحروب نكول ولا تقصير، فكان بحمد الله جمعه جمع سلامة وجمع الاعداء جمع تكسير، فاخذهم احدى القرى وهي ظالمة واعلمهم ان السيوف الاسلامية لم تترك لهم بقوة الله يدا في الحروب مبسوطة ولا رجلا في المواقف قائمة، فزلزل بعون الله اقدامهم وازال اقدامهم ونكس اعلامهم وقابل العدو بصدره وقاتل حتى افنى جديد بيضه وسمره، وهبت نسمات النصر على جيوشه فقيل يا خيل الله اركبي وبايد النصر اكتبي. وقام الحرب على ساق واضحى كل من الاعداء الى حتفه يساق. وهجرت سيوفهم الاغماد واقسمت انها لا تقر الا في الرؤوس، والاسنه اسرعت والت انها لا تروى ظمؤها الا من دماء النفوس والسهام، قد التزمت انها لا تتخذ كتائبها (كذا) الا من النمور ولا تغوص عن جنايا القسى بخبايا الاضلع الا لترفعها، لا تحل الا في الصدور. والدروع قد لزمت الابطال قائلة لا تفارق الاعداء حتى تتلى سورة الفتح المبين والجياد حرمت وطئ الارض وقالت لفرسانها لا نطأ الا جثث القتلى ورؤوس الملحدين، فعند ذلك اثبت سيفه النصار الحق، لانه القاضي في ذلك المجال ونفذت سهامه لاجل تصميمه فلم تمهل حتى اخذت دين الآجال وهو حال.

الله اكبر هذا النصر والظفر هذا هو الفتح لان يرغم البشر

فظهر الله منهم تلك الديار وصلموا عندما ايقنوا بالدمار، وصارت بحمد الله نجوم الضلالة آفلة ومواطن الكفر بالاسلام آهلة وعن الاذان يعرب، حيث كان لناقوس يضرب واصوات حماتكم الاسلامية بالتكبير والتوحيد بها عالية. فقد فهمنا ذلك وحمدنا الله تعالى وقابلنا هذه البشارة بتكرار الشكر لله الذي جعل جيوش الاسلام، حيث سلكت ملكت واين جنحت من بلاد اسرت وفتحت، فلله الحمد الذي ايدكم بنصره وجعل مهابة جيوشكم في قلوب الكفرة، تقوم مقام منزلة العدو وحصره وأظفركم على حزب المشركين الذين زعزع هيبتكم دانيهم وقاصيهم وانزل الذين ظاهروهم (كذا) من اهل الكتاب من صياصهم وسدد سهم رأيكم الذي دل على هلاك العدى سرعة نفاذه ووعدكم " مغانم كثيرة تاخذونها فعجل لكم هذه" وحكمكم في بلاد العدو لتنتشروا بها المهابة وتطؤها، وأورثكم ارضهم وديارهم وارضا لهم تطؤها. ولقد ايدتم هذا الدين المحمدي الذي وضح به طريق النجاة واستنار وفزتم بقوله عليه الصلوة والسلام " ما اغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار" وقوله صلى الله عليه وسلم " ان الجنة مائة درجة اعده الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والارض" رواه البخاري ومسلم رضي الله عنهما.

فلله الحمد على ما انعم به عليكم من الغزوات التي سطرت اجورها في صحايفكم وصحايف اسلافكم الكرام وصار خبرها غرة في جبهة الدهر وحسنة في صحيفة الايام وهذا نشيد شاعر حضرتنا :

كذا فليكن في سبيل الله جل العزايم   والا فــلا تجـــفو بجفــون الصـــوارم

كتائبك البـحر الخضـــم جيادهــــا   اذا مــا تهـــادت مــوجـة المتلاطـــم

تـحيط بمنصـور اللـــواء مظـــفر   له النصـــر والتأييـــد عبـــد وخـــادم

فيـا ناصر الاسلام يا مـن بغـــزوه   علـــى الكفـــر ايام الزمـــان مواســـم

تهن بفتح ســار في الارض ذكـــرى   سرى الغيث يحدوه الصبا والنعايم

فعند ذلك امرنا باعلان البشائر واظهار الزينة والسرور بممالكنا الشريفة لما من الله به من هذه النصرة وامددناكم بصالح الدعا مع تضاعف المسرة واضحى المسلمون مستبشرون بهذه النعمة التي تسربل كل واحد منها بابهى لباس، وتلا كل منهم ذلك بفضل الله علينا وعلى الناس، وجهزنا اميركم مفخر الحجاج والزوار زين الدين حاجي محمد الزيتوني زاد الله تقواه ويسر مناه مع الافلوريات المسكوكة بالسكة الجديدة الجيدة السلطانية المنبعثة الى شريف المكة المكرمة وفقراء الحرمين الشريفين مع القافلة المصرية. فالمرجو من الله ان يصل الى المقصود وبالخير سيعود ان شاء الله تعالى. واما ما اشار اليه الكريم من سروره وابتهاجه بجلوسنا على سرير ملكنا الشريف واذعان

جميع الرعايا لطاعتنا وأمرنا المنيف من المشروف والشريف وانه اخذ بالحظ الوافر من هذه البشرى التي خصت الاسلام وعمت امة سيدنا محمد عليه الصلوة والسلام وانه امدنا بدعائه، ان الله يشد ازر سلطاننا ويشيده ويجعل الوية ملكنا الشريف مسبلة على مقامنا، ويخلده وما اشار الله من انه عاقبة هذه الغزوة الشريفة عن المكاتبة والابتداء بالمخاطبة لتحقق بخواطرنا الشريفة تاكيد اسباب الوداد وتصحيح علل الاتحاد. فقد فهمنا ذلك ونتحقق ان المحبة لنا من هذا البيت الكريم مستديمة والمودة بيننا وبينه كالاسلاف الكرام مستقيمة، وقد تواردت الخواطر منا ومنكم على عقود المحبة بجميل الاعتقاد وتاكد المودة بعزيز الخلوص والوداد. واما الهدية التي شرفنا بارسالها، فقد وصلت وبالاقبال قوبلت وشكرنا صدق محبة مهديها واثنينا على جميل موالاته التي لم نزل في ملئ ملكنا نبديها، وقد اعدنا المجلس السامي الجمالي قاصدكم المشار اليه بعد ان عومل بمزيد الاكرام ووافر الاحسان وغرر الاحترام وارسلنا معه احد امرائنا واعز اخصائنا المجلس السامي الاميري الكبيري الذخرى المؤتمني الاخصى الاكملى المقربى الاوحدى السيفي برندوق الاشرفي ادام الله سعادته وكتب سلامته بما على يده من كتابنا الشريف وخطابنا المنيف والهدايا والتحف التي تؤكد اسباب الوداد وجميل المصافات والاتحاد وحملناه من السلام للمقر الكريم ما يتبسم ثغر الدهر عند ادائه ويسفر وجه البشر عند ادائه وسيحيط علمكم الوسيع بما تحملناه من ذلك فنتحف بتجهيز رسله واخباره السارة من هناك والله تعالى يمده باعوانه وانصاره ويخلد نعمه عليه السلام بدوام ليله ونهاره بمنه وكرمه. وكتب في اواخر شهر ذي القعدة الحرام سنة سبع وخمسين ثمنمائة من الهجرة النبوية على واضعها السلام.

* * *

الرسالة الخامسة

رد شريف الكعبة على رسالة السلطان محمد الفاتح:

الجواب من شريف الكعبة مع التحف المتبركة

يقبل الارض في حضرة السلطاني المخدومي المظفرى المنصوري المجاهدي المرابطي الاعظمي المؤيدي المشيدي العوني الغوثى النصيري الناصرى، معين الاسلام والمسلمين سلطان الملوك والسلاطين نور عيون المجاهدين نور حدائق لطف الله في الارضين، قهرمان الماء والطين محيى الشريعة المحمدية منجي الملة الاحمدية، الفائق على اسلافه في الغزو والجهاد، المباهي بين اقرانه بالفتوح وتسخير البلاد، الذي يفتخر بعده الشريف السوابق واللواحق من آل عثمان بتشريف "ان الله يأمر بالعدل والاحسان" لا زالت اولياؤه منصورة وأعداؤه مقهورة وحصورن الخصماء بصلابته مفتوحة ونواحي بلدانهم وديارهم بمهابته مضبوطة، وما برحت نواصي احباء دولته في غداة غزواته

مبيضة، وشفائهم ضاحكة مستبشرة ووجوه المشركين عليها غبرة ترهقها فترة اولئك هم الكفرة الفجرة، وعساكره المنصورة مؤيدة من عند الله العزيز المجيب، واعلام نصره منتشرة بكتايب * نصر من الله وفتح قريب* ما قرت الغبراء قرارها، ودارت الخضراء ادوارها بالنبي وآله وذويه وبعد، يبدى لعلمه العالي اعلاه الله وادامه بالدولة الابدية والسعادة السرمدية ان مشرفتكم الشريفة ومبشرتكم المنيفة وردت الى مخلصه الداعي بالاخلاص ومحبة المباهي بالاختصاص على يد مفخر الزوار وزين الحجاج خواجه حاجي محمد الزيتوني زاد الله تقواه وجعل اخريه خيرا من اوليه، في احسن الاوقات واطيب الساعات، فاستقبلناها بالتعظيم وقبلناها بالاجلال والتكريم وفتحناها بكمال الادب وقرأناها مقابل الكعبة المعظمة بين اهل الحجاز وابناء العرب فرأينا فيها من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين وشاهدنا من فحاويها ظهور معجزة رسول الله خاتم النبيين وما هي الا فتح القسطنطينية العظمى وتوابعها التي متانة حصنها مشهورة بين الانام وحصانة سورها معروفة عند الخواص والعوام، وحمدنا الله تعالى بتيسير ذلك الامر العسير وتحصيل ذلك المهم الخطير، حمدا يوافي نعمه وشكرا يكافئ كرمه. على ان اداءها فريضة مشكلة واحصاءها خارج عن الطاقة البشرية، مقرين بالعذر والتقصير، راجين الاعانة منه في طاعته، انه على ذلك قدير، حسب ما ورد في الاخبار من الاحبار الاخيار. ان اعتراف العبد بقصور خدمته لمولاه عند الغفلة سهوا او من عدم الاقتدار سعيا، معدود من احسن العبادات والقبول، موقوف على رضائه حال التضرع في الخلوات (كذا)، اللهم يا رب الكعبة والعرفات ويا نور الارض والسموات (كذا) انصر من نصر الدين واحفظ من حفظ المسلمين واكتب السلامة على كافة الغزاة وعامة المجاهدين والحجاج والمسافرين في برك وبحرك، يا رب العالمين، وفرحنا بها نهاية المسرة وبششنا بذلك غاية البشاشة وابتهجنا من احياء مراسم اباتكم العظام والسلوك بمسلك اجدادكم الكرام، روح الله ارواحهم وجعل على غرف الجنان مكانهم في اظهار المحبة لسكان الارض المقدسة من الفرق الاسلامية، عملا بمدلول * والحب يتوارث* واهداتكم لنا ولساير السادات والفقراء والصلحاء والعلماء المسرورين بما قال صلى الله عليه وسلم * خيار امتي قوم يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم يبكون سرا خوف عذاب ربهم بالغداوة والعشي في البيوت الطيبة يدعون بالسنتهم رعبا ورهبا ويسالون بأيديهم خفضا ورفعا مؤونتهم على الناس خفيفة وعلى انفسهم كثيرة الحديث. تسعة آلاف افلورية الجديدة الجيدة بالسكة المحمدية من انفال تلك البلدة العظيمة المعنية تقسيمها في مراسلتكم اللطيفة. فعملنا بحسب الاشارة الشريفة فقبض كل واحد من المستحقين كل القبض وقال الناظرون عليها : النرجس الاصفر خير من الابيض، وامتلات اكف الفقراء من الذهب الاصفر، فصاروا كطالبي الاكسير الواصلين الى الكبريت الاحمر، داعين لكم بخلوص الجنان، راجين قبوله من الله، الملك المنان كما قال عليه السلام، دعاء المحسن اليه للحسن اليه للحسن لا يرد، حامدين الله على انعمه، في الايام وساعاتها عملاً بما قال

عليه السلام : الحمد لله على النعمة آمان من زوالها. والمسؤول من فضل الله الكامل ان ينالكم خير الدارين العاجل والآجل، كما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم : جنة عدن في السماء العليا لا يدخلها الا نبي او صديق او امام عادل الى آخر الحديث . والملتمس من جنابكم السامي، ان يحيط علمكم على احوال فقراء هذه الديار بالاصل والفرع ويزيد لطفكم على الضعفاء للمتمكنين بواد غير ذي زرع، ابتغاء لمرضاة الله يوم معاده، كما قال عليه السلام خصلتان ليس فوقها شيء من الخير : الايمان بالله والنفع لعباده. وبعثنا مع الحاجي زين الدين المشار اليه قدوة الصلحاء المتورعين مولانا نجم الدين السيوطي زاد الله تقواه لينوب منابنا في تقبيل سدتكم السنية وتلثيم عتبتكم العليه واتحفنا لخدمتكم برقع باب المكة المكرمة والاقمشة الهندية المتنوعة سبع طقوزات وعشرين شاشاة المبلولة بماء زمزم، ورأس ومكه (كذا) معلمة طايره في الهواء (كذا) كحماية الحرم. فالمرجو من نواب ابوابكم العالية الانعام بالقبول والعذر عند كرام الناس مقبول. ادامكم الله وايدكم بالدولة القاهرة والسلطنة الباهرة الى يوم الدين امين .

سياسة الإتحاديين ببلاد الشام والثورة العربية سنة 1916 : محاولة جديدة للفهم (1)

قبل ان أتناول بالدرس هذا الموضوع الدقيق، اود ان اتعرض لبعض الحقائق التاريخية الثابتة في اطار المتغيرات السريعة والتي تعرفها ساحتنا الفكرية والسياسية والاقتصادية ليس فقط على صعيد البلاد العربية بل وفي تركيا ايضا .

أولا : انه على صعيد الساحة الفكرية والسياسية التركية اليوم، مازالت الصورة عن موقف العرب وخصوصا النخبة الفكرية العربية والصحفيين اثناء الحرب العالمية الأولى عن الدولة العثمانية قاتمة وسيئة، وهذا ما يفسر النزعة التحاملية التي اتسمت بها كتابات عدد من المؤرخين الاكادميين الاتراك عن هذا الموضوع، الغائب الحاضر، في خلفية وسلوك القادة السياسيين والمؤرخين الاتراك اليوم.

ثانيا : انه في الجانب العربي نلاحظ كيف ان السياسيين يعالجون هذا الموضوع معالجة قومية (2)، مترجمين بذلك عن المرتكزات العقائدية الثابتة التي كيفت رؤيتهم، وهي المرتكزات التي ورّثوها من خلال تعميم كتابات الصحافيين السياسية ثم الأدبيات التاريخية والتي تحاملت بشكل عاطفي على القيادات السياسية للدولة العثمانية يومئذ، وهي الأدبيات التي مازلنا نلمسها حتى اليوم في كتابات اغلب الصحفيين والسياسيين، اذا ما تعرضوا لهذا الموضوع. اما المؤرخون العرب، فقد انقسموا حيال هذا الموضوع بدورهم الى فئتين تسعى اولهما الى عقلنة معالجة هذا الموضوع الشائك من خلال توظيف جديد للمنهجية والوثائق التاريخية الجديدة ، الا ان تاثير ذلك مازال محدودا جدا. واما الفئة الثانية فيمكن وصفها بانها مازالت ضحية الموروث الفكري والسياسي العربي الذي عاق لديها التحرر من هذه القيود (3).

---

(1) قدمت الصيغة الاولى لهذا البحث باللغة العربية في مؤسسة عبد الحميد شومان في عمان في شهر جوان 1992 ثم باللغة الفرنسية في نطاق فعاليات المؤتمر العالمي السادس للدراسات الاقتصادية والاجتماعية للامبراطورية العثمانية وتركيا والذي عقد بإكس اون بروفنس (فرنسا) من 1 الى 4 جويلية 1992. وقد نشرت باللغة العربية في المجلة التاريخية المغاربية . عدد 65-66 . ص 71-97 .
إلا انه بعد اجراء بعض التحريات في ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس حول الموضوع، اكتشفنا مجموعة من الوثائق الجديدة والتي دفعتنا الى اجراء تعديل جوهري على اصل البحث .

ولا شك ان هذا الموضوع قد حظي باهتمام مركز من طرف عدد كبير من الباحثين العرب والاتراك والاجانب وانه توجد نتيجة لذلك مئات الدراسات والتآليف حول مختلف المسائل لهذا الملف التاريخي المعقد. غير ان الهدف الذي وضعناه لهذه الدراسة، هو مساهمتنا المتواضعة في القاء اضواء جديدة وكاشفة حول عدد من المسائل التاريخية، ثم دراستها بفضل رصيد وثائق الخارجية الفرنسية الغنية والتي اطلعنا عليها مؤخرا.

(2) راجع دراستنا السادسة : " اشكاليات البحث التاريخي العربي عن الولايات العربية اثناء العهد العثماني" المنشورة اسفله ، ص 93-101.

(3) نشرت صحيفة الثورة الدمشقية بتاريخ 17 جوان 1992 ، عرضا مفصلا لملتقى الفكري الخامس المنعقد بحمص حول .../...

ثالثا : اننا منذ اكثر من عقدين من الزمن سعينا الى ارساء حوار المعرفة والتعاون العلمي مع المؤرخين والباحثين الاتراك والذين جمعتنا بهم في الماضي وحدوية المصير الاداري-السياسي والثقافي-الحضاري. ولا شك لدي ، اننا مقبلون خلال العقد القادم على متغيرات جيو-سياسية واقتصادية وثقافية ستجعل من قطب الأمة التركية وامتدادها الجغرافي في آسيا الوسطى، دولة ذات وزن وثقل خطيرين جدا على آلية ومصيرية الشرق الأوسط برمته . ووفقا لهذه المعطيات ، لعله يكون من الحكمة والمنطق، السعي الى تجريد العلاقات العربية التركية من الاهواء والتيارات السياسية والاحكام المسبقة ، ليس فقط من الجانب العربي بل وايضا من الجانب التركي، لنعمل معا لنحت علاقات مستقبلية بناءة هادفة وواعدة .

رابعا واخيرا : اننا في هذه المحاولة التقييمية لثورة سنة 1916 ، واشكاليات سياسة الاتحاديين تجاه الولايات العربية وعلى الخصوص تجاه بلاد الشام، سعينا من منطلق تاريخي بحت، ان نكون أمناء على استقراء الحقيقة المجردة والتقيد بها مهما كانت حرجة وقاسية . فليس هنا لتبرير طرف معين دون آخر او تبييض موقف ما او التعتيم عليه، بل ان محاولتنا ها في هذا المسعى لعقلنة العلاقات العربية-التركية ودراسة طبيعة وخلفية الأحداث الحاسمة ا، وراء تصدع الجبهة العربية-العثمانية، ثم شرح الأسباب المباشرة التي ادت فيما بعد، الى كل طرف للآخر وتحميله المسؤولية فيما حصل للدولة العثمانية وللبلاد العربية في آن واحد. و برر مدى عمق القطيعة النفسية والفكرية والحضارية التي بعدت بين الأمتين زمنا طويلا . وعليه فان الواجب يقضي علينا نحن المؤرخين العرب وكذلك الاتراك ، العمل للخروج من هذا المأزق النفسي، وهذا لا يتم الا بفضل الحوار والتواصل والدراسات التاريخية المتانية والمنهجية الموثقة والمتحررة من الموروث الذي كان وراء تأجيج العواطف ونزعة التحامل والتعتيم لكلا الطرفين ، العربي والتركي.

* . * *

تحوم دراستنا اذن حول عدة محاور بدء بتحليلنا لفهم آلية وغائية حكم الاتحاديين في بلاد الشام ثم الدور الذي قام به الشريف حسين في احداث الساحة السياسية العربية-العثمانية وخلفيات اعلان الثورة (4) على الاتحاديين وصدى ذلك على المستويين العربي-التركي والعالمي

موضوع : الامة العربية تحت الاحتلال العثماني (كذا) . وحيث استعرضت فيه اهم النظريات التي نادى بعد ضد من اسائد . ولا يسع الباحث الا التعبير عن الاسف لهذه المقولات التي سمعناها منذ ثلاث عقود ولم تاخذ بالاعتبار نتائج البحوث التاريخية التي الوثائق الجديدة العربية والتركية على المستويين العربي والدولي .

(4) دأب بعض المؤرخين وبعض السياسيين مؤخرا على تسميتها بالثورة العربية الكبرى، وفي ذلك دلالة على التوجه القومي لدراسة العربي. راجع بهذا الخصوص مثلا وليس على سبيل الحصر، كتاب العقيد مصطفى طلاس، الثورة العربية الكبرى (664ص، منشورات مؤسسة طلاس ، دمشق ، بدون تاريخ . أو الكتاب الذي ظهر مؤخرا والذي يعج بالعديد من الاخطاء التاريخية ، قدم قلعجي ، الثورة العربية الكبرى 1916-1925 . 525 ص ، بيروت . 1993 .

وطبيعة الاتصالات الثنائية العربية-البريطانية والعربية-الفرنسية .

ولاعطاء صورة عن المسار السياسي للشريف حسين ، نذكر بوصول الشريف الى عاصمة الدولة العثمانية استانبول سنة 1893 وسنه لا يتجاوز الأربعين ، بدعوة من السلطان عبد الحميد الثاني. وقد كانت العاصمة العثمانية التي تمثل المسرح السياسي المتحرك، قد استقطبت نخبة من القيادات الفكرية والسياسية العربية-العثمانية (5)، وهي القيادات التي تطعمت بايمان النضال الفكري والسياسي العثماني الموسع، دفاعا على وحدة الدولة العثمانية من الأخطار العديدة التي كانت تحيط بها من كل جانب.واثناء ذلك عين السلطان عبد الحميد، الشريف حسين عضوا في مجلس الشورى (6). ومن الطبيعي جدا ان يكون الشريف حسين شخصية سياسية هامة . فقد كان بيته مأوى للعرب والأتراك المقربين (7) . ولا شك ان هذه الاتصالات لعبت لدى الشريف دورا مباشرا في هذه المواكبة الآنية للأحداث السياسية العثمانية-العربية والدولية وانضاج رؤاه السياسية لطبيعة قضايا الساحة ، بل ومعرفة خصائصها ومميزاتها واشكالياتها العديدة .

[illegible] اقامته المطولة التي استمرت ست عشر سنة باستانبول ، لم يجد السلطان عبد الحميد [illegible] عليه (8)، وحيث كان نموذجا للمواطن المثالي، ولم يعرف عنه تبنيه لمواقف متطرفة ، قومية [illegible] سياسية، كانت قد شدت الانتباه اليه وخاصة تجاه أمهات المسائل الجوهرية التي عرفتها [illegible] العربية مثل: آلية الحركة الاصلاحية وتعثرها في الولايات العربية والأزمات المالية الخطيرة وزيادة نفوذ الدول الكبرى وضعف السلطة المركزية. ولعل شدة تكتمه وحذره جعله قليل البوح بآرائه الشخصية ومواقفه الحقيقية (9) الا ان هناك من دافع على ارائه التحررية (10) . ومن جهة اخرى، وعلى الرغم من تزوجه من تركية وبقائه ست عشر سنة باستانبول، فان كل الوثائق والمعلومات التي بحوزتنا، تؤكد انه يتكلم اللغة التركية ولكنه لا يجيدها ولم يستعملها قط في اي مناسبة . الا ان هناك من اكد على ان الشريف على علم واطلاع بالحضارة الغربية (11) . وبتاريخ 11 تشرين

----

(5) لا على سبيل الحصر نذكر المشهورين منهم محمد عبده جمال الدين الافغاني ، خير الدين التونسي .....

(6) غوانمة ، هنادي يوسف ، المملكة الهاشمية الحجازية ، ص 33، منشورات دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ،1989 .

(7) المرجع نفسه ، ص 34 .

(8) سليمان ، موسى ، لورانس العرب، وجهة نظر عربية ، الطبعة الثانية ، ص 74 - 75 . منشورات وزارة الثقافة ، عمان ، 1992؛

(9) المرجع نفسه ، ص 41 .

(10) ارشيف الخارجية الفرنسية : Affaires Musulmanes 1681; Evénements d'Arabie, vol 1. ؛ رسالة من [illegible] (Defrance) الوزير الفرنسي المعتمد بالقاهرة الى السيد بريان (Briand) ، وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 1916/6/17.

(11) المرجع نفسه Affaires musulmanes 683, Evenements d'Arabie vol III رسالة بتاريخ 1916/8/5.

الأول 1908 ، صادق السلطان عبد الحميد على تعيينه على امارة مكة. وقد وعدالسلطان يومئذ، ان يكون وفيا للدولة وخادمها الأمين وان يكون عثمانيا متمسكا بروابط الأخوة الإسلامية وتقويتها بين الخلافة العثمانية وبين العالم الاسلامي (12) . الا انه بعد ذلك بقليل، تم اسقاط حكم السلطان عبد الحميد وكانت الحركة التي اسقطته في بادئ امرها، تنعت نفسها بحركة المثقفين والتي نادت بتطبيق القانون والتشريع الدستوري على انظمة الدولة واحترام حرية الرأي (13) . ان المتتبع لتأثير تفاعلات هذه الحركة التشريعية على الرأي العام العربي، سوف يسجل مدى الانتعاش والأمل الذي عبرت عنه الطبقة المثقفة العربية دون استثناء. ألم يكتب رشيد رضا: " ان هذا الانقلاب يمثل عيد الأمة العثمانية الذي بشر بنعمة الدستور والحرية" (14). بل ان الشعراء والكتاب العرب مشرقيين او مغاربيين انبروا يشيدون بحسنات هذا الانقلاب واعمال القائمين عليه (15). وقد انتسب بعض القياديين المغاربيين الى جمعية الاتحاد والترقى كالشيخ عبد العزيز جاويش وسليم بك الجزائري وصالح الشريف الذين لعبوا دورا مهما في الجبهات العسكرية العثمانية بالبلقان وبعض الولايات العربية (16). كذلك كان النواب العرب وعددهم ستون (17) من انصار الاتحاديين في مجلس المبعوثان ، قد لعبوا هم الآخرون دورا سياسيا هاما لم تهتم به مختلف المصادرفي تكييف وصنع العلاقات العربية-التركية يومئذ (18) .

ان هذه الحركة التحررية في الرأي والقول وجدت متنفسا لها في عديد الدوريات العربية التي

---

(12) هوانمة، منادي . نفس المرجع ، ص 41 .

(13) Kologlu, Orhan " Turkish-Arab relations as reflected in the Arabic Press during the period when the Ottoman Empire was desintegrating (1908-1918) and its impacts on the present day" in Turk Arab Iliskileri: Gecmiste, Bugun ve Gelecekte, p. 98, Ankara, 1979.

(14) جريدة المنار . ع 11 . 1908 .

(15) د. ياغي، اسماعيل " التنظيمات القومية العربية في بلاد الشام 1876-1916" في : الحياة الادارية وبروز القومية ودور الاقليات في الولايات العربية اثناء العهد العثماني، ص 456، منشورات سيرمدي، زغوان، 1992.

(16) الشعبوني ، محمد ، موقف البلدان المغاربية من مسالة الخلافة 1914-1926 ، رسالة دكتورا نوقشت في صيف 1992 . بكلية العلوم الإنسانية والإجتماعية لجامعة تونس .

(17) د. حران، تاج السر. تطور الفكر القومي العربي خلال العلاقات العربية - التركية في الفترة 1908-1914 . ص 42 . منشورات معهد البحوث والدراسات العربية . بغداد . 1983 . راجع ايضا :

Okyar, Osman " The Union and Progress Committe and Nationalim" in Actes du VI Symposium, of C.I.E.P.O, Cambridge 1-4 July 1984, Editions de Jean-Louis Bacqué-Grammont and Imeri Von Donzel, Istanbul, 1987.

وحيث قدم ص 291 . تركيبة مجلس المبعوثان على الشكل التالي : 147 من الاتراك . 60 من العرب، و77 من الالبانيين و26 من اليونانيين و14 من الارمن و4 من اليهود و10 من العبيد .

(18) د. حران ، تاج السر. نفس المرجع ، ص 39 .

بلغ عددها سنة 1909، 7 في استانبول و67 في الاراضي العربية بالمشرق. كما ظهرت في نفس السنة 12 دورية عربية-تركية بعد ان كانت 7 خلال سنة 1907، وهذا في استانبول وحدها. بينما ظهرت41 دورية عربية-تركية في الولايات العربية بعد ان كانت فقط سبعة (19). كما برز اكثر من 377 دورية باستانبول وحدها و 85 في بلاد الشام خلال هذه الفترة الزمنية ذاتها (20)، اما بالنسبة للغة التركية، فقد تجاوزعدد الدوريات 308 (21). والواقع لقد منحت حركة الاتحاديين آمالا عريضة، وهذا نتيجة الثورة التشريعية العثمانية التي تبنوها. إلا انه في نفس الوقت سرعان ما خيبت الآمال فيها لاسباب عديدة سنتعرض للبعض منها بالتحليل والدرس (22).

ان اعلان النمسا ضم البوسنة والهرسك اليها واعلان بلغاريا استقلالها عن الدولة العثمانية وكريت عن انضمامها الى اليونان واحتلال ايطاليا لطرابلس الغرب وبرقة، وتتويج ذلك باعلان بقية دول البلقان هجوما جماعيا على الدولة العثمانية في اكتوبر 1912، كانت كلها بمثابة ناقوس الخطر الذي هدد البناء العرقي والقومي للدولة العثمانية برمتها (23)، بل وايقظ لدى قادة الاتحاديين نزعة متطرفة جدا للدفاع عن وحدة الدولة من خلال تبني مبدأ التتريك القاضي بخلق شعب واحد، يتحدث ويتعامل رسميا بلغة واحدة هي اللغة التركية والتي جعلها الدستور اللغة الرسمية. بل ان قانون الانتخابات جعل معرفتها واجبة على كل النواب (24). وفي هذا الاتجاه اصدر الاتحاديون بتاريخ 23 اوت 1909، قانون التجمعات الجديد والذي حظر تكوين النوادي والجمعيات التي تحمل اسماء عرقية او قومية (25) وشجعوا حملة صحفية عنيفة معادية للعرب بهدف استثارة المشاعر القومية التركية او الطورانية واستعداء بقية الشعوب الأخرى ذات الانتماءات القومية (26).

---

(19) Kologlu, Orhan, op. cit., p.100

(20) Ibid., p. 99.

(21) Ibid., p. 100

اثبت الباحث عدد الصحف والدوريات الصادرة، خلال سنتين 1907 - 1909، بالنسبة لكل اللغات المستعملة يومئذ في الامبراطورية العثمانية.

(22) Lewis, Bernard, Islam et Laïcité, p. 188, Publications Fayard-Paris, 1988.

(23) المرجع نفسه، ص 190.

(24) د. حران، تاج السر، نفس المرجع، ص 33. نسجل في هذه الفترة الزمنية بالذات كيف غير الاتحاديون اسماء كل السفارات، فبعد ان كانت تسمى السفارات العثمانية، اصبح يطلق عليها السفارات التركية!

(25) المرجع نفسه، ص 32.

(26) د. كوثراني، وجيه، السلطة والمجتمع والعمل السياسي من تاريخ الولايات العثمانية في بلاد الشام، ص 170، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، اكتوبر، 1988.

الا ان إعادة استيلاء الاتحاديين على الحكم في 1913/1/13، كان منعطفا خطيرا في حياة الدولة العثمانية، ليبدأوا في ممارسة الإرهاب الفكري على اوسع نطاق في داخل الدولة العثمانية نفسها. فقد بدى باغتيال وزير الحربية يومئذ ناظم باشا في مدخل السراي (27) ثم تم اغتيال محمود شوكت، الصدر الأعظم فيما بعد، بتاريخ 1913/6/11. كما تم تعيين القيادات العسكرية من الاتراك، الغير الليبراليين (28). وكانت هذه الأحداث الحجة التي وظفها الاتحاديون لالغاء حرية الصحافة والفكر واغتيال اعدائهم السياسيين بدون رحمة امثال حسن فهمي احد رؤساء تحرير جريدة سربستي وهو من الليبيراليين المتشددين (29). والمتتبع للاجراءات العديدة التي اتخذها الاتحاديون وعلى جميع المستويات، العثمانية منها ثم العربية، تترجم عن فراغ سياسي وحضاري لفهم اشكاليات الحكم العثماني وفهم طبيعة فسيفساء القوميات التي تتركب منها الدولة، بل انهم عبروا عن قلة خبرتهم لفهم آلية الحكم والدفاع عن مصالح الدولة العليا، حفاظا على وحدتها السياسية على الاقل (30)؛ ثم حتمية الأخذ بالاعتبار لوزن وثقل اعدائهم التقليديين من الانقليز والفرنسيين والروس، وهم الذين خبروا دواليب الدولة منذ زمن، وعرفوا اسرارها وضعفها وامراضها المزمنة.

على ان الذي يهمنا في هذه الدراسة هي نوعية الاجراءات المختلفة التي تبناها الاتحاديون تجاه العرب والولايات العربية وطبقوها بكل قسوة دون الأخذ بالاعتبار لردود الفعل المحلية. فقد

---

(27) Lewis, B., op.cit., p. 198. راجع كذلك مقالي A. Rustow عن جمال باشا وانور باشا في: Encyclopédie de l'Islam, t.2. ص 544 - 545، 716 - 720.

(28) Mansfield, Peter, A History of the Midle East, p. 126. London, 1991.

(29) المرجع نفسه، ص 190.

(30) هناك العديد من الكتابات والمقالات التي ظهرت عن الخلفية السياسية الفكرية للاتحاديين ويعسر في هذه الدراسة استعراض جميعها، ومع هذا فاننا نذكر بالعناوين التالية: Mardin, Serif, Jon Turklerin Siyari Fikirleri 1895 - 1908, 255p. Istanbul, 1983.

A. Sarrou, La Jeune-Turquie et la Révolution, 268p. Paris, 1912.

Kurkctioglo, Omer, Osmanli Devletine Karşi Arab Bagismsezlik Hareklti (1908 - 1918), 261p. Ankara, 1982.

وهذا الكتاب التركي الاخير، هو الوحيد الذي تعرض بكثير من التفاصيل الموثقة الى العلاقات العربية - العثمانية في هذه الفترة الحرجة، مؤملين ان يتم تعريب هذا الكتاب والذي اعتمد كثيرا على ارشيف الخارجية البريطانية. راجع ايضا: د. رامزو، تركية الفتاة وثورة 1908، ترجمة د. إحمد صالح العلي، 259 ص، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1960.

كما ظهر مؤخرا الطبعة العربية لكتاب حسن كلشي، الوجه الآخر للاتحاد والترقي، ترجمة وتقديم د. محمد الارناؤوط، 97 ص، منشورات قدسية للنشر والتوزيع، اربد، 1990. وقد تعرض الكتاب الى الخلفية الفكرية للاتحاديين وطبيعة الاتصالات التي اجروها في دول البلقان وعلى الخصوص مدى مساهمة الحركة الماسونية ودعمها لحركتهم قبل الثورة.

جعل الاتحاديون المعاملات الرسمية والقضائية باللغة التركية وكذلك التعليم (31) وعينوا موظفين اتراكا بالولايات العربية، يجهلون اللغة العربية (32). وعندما اشتكى العرب من اللجنة المكلفة بإعادة تنظيم المصالح الحكومية التي تحيزت ضد العرب، تم فصل معظم الموظفين العرب. كما سجل في سلنامة الدولة لسنة 1911، اربعة موظفين عرب صغار، في كل مصالح الدولة في حين ضمت وزارة المالية وحدها 111 تركيا و 13 من اليهود و 10 من الأرمن و 4 من الإغريق، ولا يوجد فيها ولا موظف عربي واحد (33). اما وزارة الأوقاف، والتي كان وزيرها عربي، فانها لم تعط هذه المرة للعرب. بل ان مجموعات من الاتحاد والترقى، هاجمت بعض منازل ابناء العرب المقيمين باستانبول كما تذكر ذلك المصادر المختلفة (34). ان تطبيق السياسة المركزية وتذويب ومحاربة كل العناصر الغير التركية في إطار النزعة التتريكية المطلقة، وعدم الاعتراف للاجناس الأخرى بحقها في تبني اللامركزية، واجراء الاصلاحات الادارية الضرورية، قد حملت معها بذور الانشقاق والصراعات الدموية والتي ستعرفها الساحة العثمانية والعربية على حد سواء، وهذا دون ان نثير هنا موقف الاتحاديين الدقيق من قضية فلسطين (34 مكرر).

وانطلاقا من تعيين جمال باشا حاكما عسكريا باستانبول بعد انقلاب حركة جانفي 1913، ثم وزيرا للبحرية وقائدا أعلى للقوات المسلحة بسوريا، تبنى هذا الأخير مبدأ القضاء نهائيا على كل المعارضات التركية والعربية منها على الخصوص، وسيطر على السلطة ودواليب الدولة بيد من

---

(31) د. حران، تاج السر، نفس المرجع، ص 33.

(32) المرجع نفسه، ص 35.

(33) المرجع نفسه، ص 46.

(34) فنادي يوسف خوانمة، نفس المرجع، ص 46.

(34 مكرر) عثرنا في ارشيف الخارجية الفرنسية على رسالة هامة، كان قد وجهها السفير الفرنسي بالولايات المتحدة الى وزيره للخارجية بتاريخ 1916/8/15. تعكس مقابلة تمت بين السفير الامريكي باستانبول وخلفه الذي تعين وهو على وشك التحول الى عاصمة الدولة العثمانية وهذه هي الرسالة بعد ان عربنا نصها الفرنسي:

"لقد زارني السيد الكس (Elkus) السفير الامريكي الجديد بالقسطنطينية امس في زيارة توديعية، وكان مصحوبا بسلفه السيد مورقنتو Morgenthau. وقد استفدت من وجود هذا الاخير لاثير معه الاقوال التي نسبت اليه والمتعلقة بمشروع بيع فلسطين والتي كنت قد اثرتها في مراسلاتي السابقة.

قد بين لي رده، كما كنت اتوقع، انه لا يوجد في هذه الاقوال مواقف جادة. وقد ذكر لي ان المبادرة كان قد اخذها طلعت باشا حيث ذكر يوما وبحضوري حول احتمال تخلي تركيا بشكل مطلق من حقوقها على فلسطين مقابل تعويض مالي من طرف الدول الكبرى التي يهمها مثل هذا الشروع، لتكوين جمهورية هناك. ان كل السكان مهما كانت اصولهم سوف يشاركون في الحكومة. وقد تطرقنا في هذه المحادثة الى كيفية الاستغلال الحديث للبلد وللاماكن المقدسة ... على ان الشيء القليل الذي ذكر امامي، كان من السهل جدا ان استنتج ان السيد الكس، من جهته، لا يعتقد في امكانية تحقيق عملي للجمهورية الفلسطينية التي نادى بها طلعت باشا ..." راجع هذه الرسالة في:

A. E., Turquie 874, Syrie-Palestine Vol VIII.

حديد، ومارس الارهاب تجاه القيادة الفكرية العربية التي نادت باللامركزية الحكم، خاصة بعد ان اشتد ساعد هذه المعارضة العربية والتي استقطبت نخبة فكرية، كانت قد عقدت مؤتمرا بباريس واقرت حقوق العرب في الدولة العثمانية ، وضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية واحترام اللغة العربية التي يجب ان تكون معبّرة ليس فقط في مجلس النواب العثماني، بل ايضا لغة رسمية في الولايات العربية، ثم العمل على الاهتمام بالشباب العربي وتكوين ملكاتهم على اساس فكرة الوطنية واثارة الشعور الوطني والتركيز على الشباب المتنور في كل حركة وطنية مستقبلية وهذا انطلاقا من بلاد الشام . وان سورية يومئذ كانت قطبا لتحرك سياسي عربي " وحيث تشكلت فيها طبقة فكرية مختارة ومستنيرة ومتاثرة بالحضارة الغربية" (35).

تذهب كل الدراسات المنصفة التي عالجت هذه الفترة ووظفت المصادر الأرشيفية الغنية وتقارير المراسلين الاجانب وكذلك الانتاج الادبي والصحفي العربي منه والاجنبي، ان الوضعية العامة التي كانت عليها بلاد الشام، كانت مزرية وهذا على جميع المستويات، بدء بالمجاعة التي عمت البلاد وخصوصا بيروت، وهذا ما جعل المنظمات الخيرية الدولية والحكومات الاجنبية تسارع بتقديم مساعداتها الغذائية الى اهالي لبنان على الخصوص (36) وهو البلد الذي ينتج كميات قليلة من الحبوب، لا تكفي حتما لتلبية حاجيات سكانه . على ان هناك ظاهرة اخرى قد عمت يومئذ وتمثلت في عدم استتباب الامن والابعاد التعسفي وهذا في محاولة للسيطرة على البلاد واخماد الحركة العربية بالقوة ، ان استوجب الامر (37) . ودون ان ندخل في التفاصيل التي كانت عليها بلاد الشام يومئذ في هذه الفترة الحرجة، نذكر هنا بالمساعي الحثيثة التي قام بها الاتراك لابراز العنصر والجنسية التركية على حساب العناصر والجنسيات العثمانية الأخرى، وخصوصا منها العنصر العربي. وفي هذا الاطار تكونت عدة جمعيات اهمها : ترك اوغاقي (العرق التركي) وترك يوردي (الوطن التركي) وتركي كوقي (القوة التركية) كما قرر جمال باشا " فتح المدرسة التجارية ببيروت لاعطاء دروس في اللغة التركية مجانا للرجال والنساء ثلاث مرات

----

(35) د. حاطوم . نور الدين "دمشق في الحرب العالمية الاولى 1914 - 1918" في بحوث ودراسات مهداة الى د. عبد الكريم غرايبة . ص 394 . عمان . 1989 .

(36) ارشيف وزارة الخارجية الفرنسية : A.E., Turquie 874. Syrie-Palestine Vol VIII

نرفق تعريب نص الرسالة التي وجهها وزير الخارجية الفرنسية الى السفير الاسباني بباريس : " اشكر سعادتكم لفحوى المعلومات التي تفضلتم بمدي بها بتاريخ الاول من هذا الشهر والمتعلقة بالمبادرة التي اخذها جلالة ملك اسبانيا لفائدة اهالي لبنان البؤساء، ومد يد المساعدة لهم .

(37) المصدر نفسه :

A.E., Turquie 870. Syrie-Palestine Vol IV, برقية من دوفرنس الى وزير الخارجية بتاريخ 1916/9/10 .

في الاسبوع " (38).

ومن جهة اخرى مارس جمال باشا تجاه المواطنين في كل من بيروت ودمشق حملة ارهابية بداها باعتقال العشرات من الشبان العرب ورجالاتهم وايداعهم السجون والمنافي، وكان هدفه من ذلك شل الحركة العربية وابعاد كل خطر يهدد وحدة الدولة العثمانية الترابية (39). كما انه نقل بعض الفرق العسكرية التركية من الاناضول الى بلاد الشام. وفي نفس الوقت نصب اعواد المشانق للزعماء العرب المشرقيين وحتى من المغرب العربي وهم الذين قاوموا سياسة التتريك، متهما إياهم بالخيانة، لانهم نادوا باللامركزية وتعاونوا مع الفرنسيس والإنقليز لضرب الدولة العثمانية كما هو مشاع حتى يومنا هذا (40).

على اننا لو قمنا بدراسة لمحتوى الاتهامات التي وجهها الاتحاديون الى العرب ، فسوف نكتشف انها لا تستند اساسا على معرفة بالملف العربي- العثماني وبحقيقة الموقف العربي. ذلك ان العرب يومئذ لا يملكون جيشا منظما ومستقلا ولا يتمتعون بوزن سياسي او اقتصادي على المسرح السياسي المشرقي، بل على العكس من ذلك يوجد مصير بلادهم خارج ارادتهم، ومعنى هذا انهم غير قادرين على التاثير على الاحداث السياسية وبالتالي عدم قدرتهم على تجنب الاحداث الخطيرة التي سوف تعرفها الساحة العسكرية المشرقية والتي كان يسيطر عليها الحلفاء بفضل تنسيق تجهيزاتهم البحرية والبرية الضخمة وطول خبرتهم العسكرية في هذا المجال؛ ماذا كان يمكن للقياديين العرب، في الحقيقة، ان يقوموا به لزعزعة الامبراطورية العثمانية والقضاء عليها نهائيا، كما تدعيه عديد الكتابات الصحفية والتاريخية التركية اليوم !

ان القول بخيانة العرب عندما تعاونوا مع الفرنسيين والانقليز لضرب الدولة العثمانية من الخلف، اثناء الحرب العالمية الأولى، تعد مقولة واهية وغير مدعمة تاريخيا ولا تخضع لأبسط القواعد العلمية، وهي من الأوهام الخيالية التي لا تستند الى الحجة المقنعة ، اذا اخذنا بالاعتبار طبيعة التحديات الخطيرة التي واجهها الاتحاديون وخصوصا الموقف الذي تبنوه بدون دراسة ووعي، عندما حالفوا المانيا ووقفوا معها في الحرب العالمية الأولى .

ان دراسة متقصية للفكر القومي العربي من خلال تحليل مواقف النخبة العربية، يؤكد انهم

---

(38) مقال من جريدة المقطم بتاريخ 1916/7/24 . راجع :
A.E., Affaires musulmanes. 1683. Evénements d'Arabie vol III.

(39) A.E., Turquie 875; Syrie-Palestine vol VIII;
نسخة من السفير الفرنسي ببارن الى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 1917/2/5 .

(40) سعيد . أمين . اسرار الثورة العربية الكبرى وماساة الشريف حسين . ص 59 . منشورات دار الكتاب العربي، دون تاريخ.

لا يرغبون في الانفصال عن الدولة العثمانية ، الا ان جميعهم يأمل ادخال الاصلاحات، وهو الموقف الذي اعتبره الاتحاديون خيانة ! (41). وقد ذكر الجنرال الالماني فون ساندرس ، ان تأثير حكم جمال باشا الارهابي لم يحرر بلاد الشام من زعامة الثورة، بل زاد في الشعب روح الثورة (42)، وان تلك الحركة ادت الى ابتعاد العرب عن القضية التركية وبالتالي عن سياسة الاتحاديين القمعية.

نذهب الى الاعتقاد ان السياسة التي تبناها الاتحاديون ببلاد الشام ، كانت سياسة مبنية على اهمال العناصر المكونة اساسا للخلفية الحضارية للانسان العربي، وهو المعتز بانتمائه الى لغته وتراثه وحضارته ودينه وترابه، وان محاربة هذه المكونات الجوهرية معناه افشال اي محاولة للحفاظ على التبعية الادارية، اذ لا مهادنة ولا أمن لشعب ما ، اذا حورب في مقومات ذاتيته، وهذا ما لم تدركه قيادات الاتحاديين يومئذ ولم تفعل شيئا ، في ابانه، لكسب العرب الى جانبهم وترضية مطالبهم المعتدلة، نعم المعتدلة. ان الإتهامات التي وردت في **الكتاب الاحمر** الذي اصدرته القيادة العسكرية للفيلق الرابع للجيش العثماني باللغة الفرنسية (43) لتبرير الحركة القمعية التي مارسها جمال باشا في بلاد الشام، تبدو لنا غير مقنعة تماما وغير سليمة.

لقد منح الاتحاديون لأنفسهم اهمية وأحقية العامل الوطني في الدفاع عن وحدة الدولة العثمانية، ولكنهم انتزعوا هذا الحق عن غيرهم من الاقوام، وهذا خطأ تاريخي جسيم، كانت نتائجه خطيرة جدا على تصدع الجبهة العربية-العثمانية. وبالإضافة الى ذلك، تجاهل الاتحاديون اعدائهم التقلديين في المنطقة، وهم الذين بحكم خبرتهم الديبلوماسية الطويلة وتحليلهم لمختلف المواقف، عرفوا جيدا كيف يوظفون ذلك لمصلحتهم اولا وقبل كل شيء، مهما كانت الوسائل المؤدية لذلك. ولا شك ايضًا ان انضمام الاتحاديين باسم خليفة المسلمين الى المانيا ضد الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، كان هو الآخر احد الأخطاء التاريخية الجسيمة والخطيرة جدا والتي تم تبنيها دون معرفة دقيقة وشاملة لملف الشرق السياسي الشائك. ان التحألف التركي-الالماني قد سارع بظهور حركية التحالفات الظرفية والمستحيلة الوقوع سابقا، وهو الأمر الذي دفع بريطانيا وفرنسا وروسيا قبل ثورة اكتوبر البلشيفية، ان تخطط جميعها للقضاء على الوحدة الترابية للدولة العثمانية والإستيلاء على الولايات العربية الأسوية وتقسيمها فيما بينها. ان تحالف تركيا مع المانيا برر لدى الانقليز

---

(41) د. زين نور الدين زين . نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية ، ص 112-119 . منشورات دار النهار للنشر . بيروت . 1972 .

(42) A.E., Affaires musulmanes, Evénements d'Arabie vol III., برقية من القاهرة بتاريخ 1916/8/5.

(43) د. قاسمية ، خيرية ، الحكومة العربية في دمشق بين 1918 - 1920 ، ص 24. منشورات دار المعارف بمصر، القاهرة، 1971 .

خاصة ، توظيف كل العناصر التي تساعدهم على زعزعة موقف الاتحاديين. ومن هنا جاء اقتناعهم باستغلال تفاقم الخلاف العربي-التركي، وتوظيفه لمصلحتهم عندما تبلور لديهم الاتجاه القاضي بالتقرب من الحركة العربية الناشئة ومحاولة استغلالها (44) . ان دوائر الاستخبارات البريطانية والفرنسية بالمشرق، امدتنا بمعلومات اولية لفهم مواقف جميع الأطراف وخلفية تحركاتهم. وفي هذا النطاق ذكر السر هنري ماكماهون، المندوب السامي البريطاني بالقاهرة ان " الحكومة الانقليزية تبنت مبدأ عدم تشجيع الحركات، الا تلك التي ترى جدوى ونجاعة تأييدها . ولم ينكر ان الاستفادة من بعض اهالي وموظفي آسيا الصغرى ضد النظام التركي-الالماني، يمكن ان يتم ، ولكن في حينه" (45).

تقضي الاستراتيجية الانكليزية اذن بابعاد او على الاقل تأخير اي عمل عدواني تركي-الماني ضد مصر، وان كل الطرق والوسائل المؤدية الى ذلك، يمكن تصورها وتبنيها لايجاد جبهة ضد الاتراك العثمانيين والالمان، بدءا باستغلال الغضب العربي وتشجيعهم للانضمام الى مجهودات الحلفاء في حركتهم العسكرية . وفي هذا السياق عبّر وزير المستعمرات الفرنسي عن اسفه، عدم تشجع الحركات المنشقة ضد الحكومة المركزية (46) . وقد بدأت تظهر للانكليز المنافع الكبرى التي سيجنونها من تقاربهم مع الحركة الوطنية العربية المعارضة. لنستعرض هنا خلفيات الاتصالات الأولية الشريفية-البريطانية (47) ، وسنركز على عدد من الثوابت التاريخية التي جعلت من الشريف حسين ، الشخصية السياسية التي باستطاعتها بلورة المطالب العربية الشرعية والدفاع عن مواقف النخبة الفكرية والسياسية في داخل الأرض العربية وخارجها .

لقد استطاع الشريف حسين بحكم انتمائه الى الرسول وموقع الحجاز الاستراتيجي البعيد عن تمركز احتشاد القوات العثمانية، ونجاحه المتميز بادئ الأمر في السيطرة على القبائل ، وبروز قوة شخصيته وحسن ادارته لشرافة مكة وحماية المقدسات الاسلامية، جعلت منه افضل مترشح للتعبير

---

(44) La Vérité sur la question syrienne, publié par le Commandement de la IVe Armée, 168p photos, Stamboul, 1916.

(الحقيقة حول المسألة السورية) ، 168 ص . استانبول 1916.

(45) A.E., Turquie 871. Syrie-Palestine vol V;

رسالة من وزير المستعمرات الفرنسي الى وزير الخارجية الفرنسي بتاريخ 1916/1/5.

(46) المرجع نفسه .

(47) د. الروسان . ممدوح عارف . فلسطين في مراسلات حسين مكماهون . 1915 - 1939 : قراءة جديدة في الوثائق والدرسات المعاصرة . ص 9 - 19 . عمان . 1990 .

عن الطموحات العربية النبيلة التي نادت بها الحركات العربية (48). ألم يوجه اليه 35 نائبا عربيا في مجلس المبعوثان عام 1913 ، مذكرة يعترفون له فيها « بالرئاسة الدينية على جميع الأقطار العربية » (49) ، بل ان اعضاء جمعية الفتاة والعهد واللتين تمثلان ضمير الأمة العربية، قد طلبتا من الشريف ان يتولى قيادة العرب السياسية (50) .

وعندما تبين للشريف حسين خطورة انضمام الدولة العثمانية الى المعسكر الالماني وقصر نظر الاتحاديين ، نتيجة للسياسة التي انتهجوها ببلاد الشام والمستمدة من الايديولوجية الطورانية التي آمنوا بها، ثم سعيهم الى تغيير ميزان القوى بالحجاز بتعيين وال جديد موال لهم، جعله يسرع بايفاد ابنه الأمير عبد الله الى استانبول عن طريق القاهرة، لشرح وجهة نظره الى رجال الدولة العثمانيين وموقفه من عديد القضايا التي كانت الساحة العربية العثمانية مسرحا لها . ان الانكليز الذين لم يفكروا بالاتصال مباشرة بالجمعيات العربية النشطة (51) يومئذ، لم يفوتوا الفرصة ليتم اول اتصال بين عائلة الشريف والبريطانيين بالقاهرة، باعتبار ان الشريف يعد الشخصية الدينية في العالم الاسلامي يومئذ، وانه حامي الاماكن المقدسة مكة والمدينة .

وفي هذا الظرف بالذات قامت الدعاية الالمانية بنشاط واسع في اتجاه العالم الاسلامي حيث قامت باغراقه بالآف المناشير باللغات العربية والتركية والفارسية وكذلك في عديد اللغات الشرقية وحتى الصينية منها ؛ وكان هذا عامل خطير جدا اذا اخذنا بالاعتبار كيف ان الدول الأوروبية قامت قبل ذلك بعشرات السنين، بالدعاية لفائدة القناصل العثمانيين باعتبارهم يمثلون السلطة السياسية للامبراطورية العثمانية (52) ، وكان عليهم ان يجابهوا هذه الحملة التركية-الالمانية الدينية ونتائجها الخطيرة على المسلمين الخاضعين لبريطانيا وفرنسا .

كذلك نشط عدد من الوطنيين المغاربيين امثال الشيخ صالح الشريف وعلي باش حانبة الذين

----

(48) د. خيرية قاسمية . نفس المرجع . ص 25 . راجع ذلك هنادي يوسف غوانمة . نفس المرجع . ص 60 .

(49) سليمان، موسى . الثورة العربية . محاولة للفهم . في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية . عدد 7 و8 . ص 357-380 . منشورات سيرمدي « زغوان . 1993 . راجع كذلك بهذا الخصوص قائمة الشعراء العرب الذي ساندوا الشريف حسين : د. أبو دية سعد " الفكر السياسي في قصائد الثورة العربية الكبرى . في الحياة الفكرية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني . ج 1و2 . ص 23 - 44 . منشورات سيرمدي . زغوان . 1990 .

(50) المرجع نفسه .

(51) امين سعيد . نفس المرجع . ص 37 . يثبت ان الانكليز كلفوا رشيد رضا صاحب مجلة المنار ومؤسس مجلة الجامعة العربية . أن يقوم باتصالات مع عدد من الامراء والزعماء العرب . وقد قام رشيد رضا بتعيين محب الدين الخطيب لزيارة نجد والشيخ محمد القلقيلي لزيارة بلاد الشام والشيخ عاصم رضا لزيارة اليمن .

(52) من مقال صدر في الجريدة الايطالية Idea Nazionale بتاريخ 1916/6/28 بعنوان : ايطاليا والبحر الاحمر.

وجدا في المانيا ارضية لتحرك سياسي من اجل انشاء لجان تعمل لاستقلال الجزائر وتونس والتخطيط لزيارة مصر. والعمل كما يبدو على التنسيق مع الحزب الموالي للاتحاديين بمصر وفي نفس الوقت القيام بدراسة الرأي العام واعداده للقيام بنشاط فكري وديني ضد الحلفاء؛ الا ان السلطات الفرنسية بالقاهرة، سرعان ما تدخلت لدى السلطات البريطانية والحيلولة دون هذا النشاط بعد ان وفرت كل المعلومات عنهما بما في ذلك صورهما الشمسية .

ومن جهة قام ابنا الشريف فيصل وعبد الله بعديد الزيارات الى بلاد الشام ومصر واتصالهما بالنخبة العربية المتحركة، وهي التي فوضت الشريف، زعامة الحركة ومنحته أحقية الدفاع عن مطالبها الشرعية ، وأصبح بذلك الفضاء الحجازي مركز الثقل للتحرك العربي . وهذا ما برره فيما بعد، انطلاق الثورة العربية منه . على ان هناك عاملا جديدا اثر بشكل مباشر على ميزان القوى المتصارعة وتمثل في اصدار السلطان الخليفة العثماني ، فتوى الجهاد ضد الأعداء بتاريخ 1914/11/14، وهو ما عد بمثابة ناقوس الخطر لبريطانيا التي تخشى عواقب ذلك على مسلميها بالهند، ولفرنسا بالنسبة لمسلمي افريقيا الشمالية والغربية (53). وهو ما جعل بريطانيا خاصة تركز اساسا على اقناع الشريف حسين وابنائه ، باتخاذ موقف مضاد لتكفير الاتحاديين وعدم شرعية هذه الفتوى. وهذا ما يترجم على الأهمية البالغة التي منحها الحلفاء لهذه الحملة الاعلامية التي قام بها الاتراك العثمانيون والالمان والتي هزت الساحة المشرقية ، وجعلهم يدركون جيدا مدى الأهمية الاستراتيجية القصوى للتعامل مع المعارضة العربية وعلى الخصوص مع الشريف حسين، رمز الشرعية الدينية الاسلامية وهو الأمر الذي دفع بالبريطانيين لوضع مخطط للاتصال به .

وقد كتب دوفرنس الوزير الفرنسي المفوض بالقاهرة الى وزيره حول السياسة البريطانية في المنطقة : " منذ عدة سنوات حرصت بريطانيا على تطوير وجودها في شبه الجزيرة العربية من خلال قنوات عديدة. ولا شك انها تخطط لوضع هذه الأنظمة بطريقة او بأخرى، تحت تاثيرها المباشر والوحيد، وهذا ما جعل الشريف حسين يقع تحت تاثيرها خاصة وانه يتمتع بصفات الخليفة؛ وعليه أمكن لانكلترا دراسة اقامة شريف مكة كخليفة بدل سلطان القسطنطينية .." (54) .

يمكن اذن من خلال هذه التصريحات والمواقف ، ان ندرك استراتيجية التحرك البريطاني في هذه المسالة . ألم يصرح بشكل واضح المندوب السامي البريطاني بالقاهرة للوزير الفرنسي المعتمد

----

(53) Yapp. M.E., The Making of the Modern Near Yeast 1792 - 1923, p. 272, Forth impression, London, 1990.

(54) A.E., Turquie 871. Syrie-Palestine Vol V رسالة من دوفرنس الى وزير الخارجية بتاريخ 1916/1/3 .

بمصر قوله : " ان الهدف السريع والمباشر لبريطانيا هو العمل لكسب العرب ومنعهم ان يبيعوا او يكتروا او يمدوا الالمان والاتراك بجمالهم الضرورية لتنظيم الحملة على مصر ..." (55) وقد اضاف ان : "العرب الذين يرتابون كثيرا في الاتراك سوف يقبلون بطواعية وعود الحلفاء المحدودة عن وعود الالمان اللامحدودة ..." (56) . وفي هذا الاطار، اوفد الشريف حسين محمد بن عريفان الى القاهرة عديد المرات للاتفاق مع السلطات الانكليزية ؛ وقد نتج عن ذلك ما يعرف تاريخيا بمحادثات الشريف حسين-مكماهون السرية (57) والتي اقرت باستعداد البريطانيين للوقوف مع الشريف ضد الاتحاديين ومدهم له بالمساعدة العسكرية وتحقيق انشاء دولة عربية مستقلة بقيادة الشريف حسين، اذا ما اعلن الثورة على الاتحاديين وساند الحلفاء. وقد جاء في احد التزاماتهم للشريف : " ان بريطانيا مصمّمة على ان تقف بجانب الشعوب العربية في جهادها حتى تبنى عالما عربيا يسوده القانون والشرع بدل الظلم العثماني ..." (58) .

ادخل هذا الوعد على الشريف حسين وبقية القيادات الوطنية ارتياحا. ومما لا شك فيه ان المندوب السامي البريطاني بالقاهرة قد تبنى موقفين متعارضين تماما، احدهما تمثل في طمانة الشريف وتشجيعه للوقوف الى جانب الحلفاء، مانحا اياه الوعد تلو الآخر، لانشاء الدولة العربية المستقبلية تحت اشرافه ؛ غير انه من جهة اخرى ذكر لدوفرنس : " ان الحكومة البريطانية قد سعت جاهدة، ان لا تبرز علاقاتها مع الشريف حسين، وخصوصا ان لا تمنح هذه العلاقات الموجودة حاليا ، اي صبغة سياسية او رسمية ..." (59) .

ومن جهة اخرى اكد الجنرال كلايتون Clayton ، مدير الاستخبارات البريطانية بالقاهرة ، الطابع الشفاف والغير الرسمي للالتزامات البريطانية : " ان الشريف قد تلقى وعدا بسيطا للاعتراف باستقلاله واستقلال بقية الزعماء العرب الأخرين عن تركيا .. وان بريطانيا بعيدة كل البعد عن فكرة انشاء الدولة العربية الكبرى والتي دار حولها الحديث، وان انشاء مثل هذه الدولة في رأيه دوما ، ليس فقط غير مرغوب فيه، بل مستحيلا .." (60) .

ان هذا الرأي يترجم بكل وضوح عن الموقف البريطاني الحقيقي تجاه محادثاتها مع الشريف حسين ، عندما عبرت فرنسا عن قلقها العميق وعدم موافقتها على انشاء الدولة العربية التي

---

(55) A.E; Turquie 871-Syrie-Palestine vol V ؛ رسالة من دوفرنس الى وزير خارجيته بتاريخ 1915/12/13.

(56) المصدر نفسه : رسالة من دوفرنس الى وزير خارجيته بتاريخ 1915/11/12.

(57) المصدر نفسه : رسالة من الاميرال هوفو . قائد الفرقة البحرية للشرق الاقصى ومصر بتاريخ 1915/10/30 .

(58) سعيد . امين . نفس المرجع . ص 232 .

(59) A.E., Affaires musulmanes 1684; Evénements d'Arabie Vol IV . رسالة بتاريخ 1916/8/30.

(60) A. E., Affaires musulmanes, Evénements d'Arabie Vol 1 ؛ رسالة من دوفرنس الى وزير خارجيته بتاريخ 1916/6/24.

تشمل جميع اراضي بلاد الشام ، وقد صرح المندوب السامي البريطاني الي الوزير الفرنسي المفوض بالقاهرة : " استحالة تكوين دولة مستقلة تضم كل الأراضي العربية : وقد اعاد القول ان "إنشاء مثل هذه الدولة ، لا يمكن ان يكون في الوقت الحاضر، الا حلما " (61).

* * *

لقد نشرت مراسلات الشريف حسين-مكماهون وهي في متناول الباحثين (62)؛ وقد كانت وراء العديد من البحوث والدراسات على المستوى العربي والغربي طوال العقود الماضية. ويمكننا ان نؤكد اليوم ان هذه المحادثات غير متكافئة في الاهداف والغايات والوسائل المتبعة وكلا الطرفين البريطاني والعربي يمثل نموذجين لعقليتين مختلفتين . ففي حين كان الانكليز قد احسن اتقان اللعبة السياسية باعطاء الشريف، حسين الوعود تلو الوعود بانشاء دولة عربية مستقلة تحت قيادته، بعد طرد الاتراك -العثمانيين من اراضي الولايات العربية الأسيوية ، واعطائه الضمانات الشفوية الشفافة والتي لم تؤطر في صيغة معاهدة تستجيب لمبادئ وقواعد أساسية محددة ومرسومة وواضحة ومتفق عليها (63) ، وكان موضوع اختلاف عميق وجوهري جدا (64) ، نرى الشريف حسين يجهل كل شيء عن فلسفة الحكم البريطاني وتاريخهم وتجربتهم السياسية الطويلة بالخليج العربي والهند، وانه نتيجة لذلك انساق بأريحية العقلية "البدوية" المحافظة والتي لا تعرف المجاملة وانصاف الحلول ولا تكذب ولا تداري وتتمسك بما تعتقد انه الحق ، وهذا مع صلابة في الرأي وتحفظ شديدين نحو الأجانب، ممزوج بقلة الثقة فيهم (65). بل ان زعماء الحركة الوطنية الشامية وحتى المغاربية، آخذوا الشريف حسين ببساطة وسرعة معالجته للقضية العربية واستئثاره بالموضوع وتشدده وعدم اصغائه للنصائح وعدم استشارته لهم واطلاعهم بمجريات وتطور المحادثات السرية مع البريطانيين، وهي المحادثات التي ستلزم ليس فقط الشريف بل مصيرية العرب في بلاد الشام

---

(61) المصدر نفسه : Affaires musulmanes 1681, Evénements d'Arabie, vol 1 ؛ رسالة من دوفرنس الى وزير خارجيته بتاريخ 1916/6/24 .

(62) راجع على الخصوص :

Kokayem, Antoine et Biltar, Marie Claude, L'Empire Ottoman, les Arabes et les Grandes Puissances 1919-1920.

(الامبراطورية العثمانية والعرب والقوى العظمى) ، وحيث نشرا جزءا هاما من هذه المراسلات . كذلك راجع موسى، سليمان، المراسلات التاريخية ، جزءان ، عمان ، 1973.

(63) امين سعيد ، نفس المرجع ، ص 65 .

(64) Yapp, op. cit., P. 281

(65) امين سعيد ، نفس المرجع ، ص 159.

والعراق والجزيرة العربية برمتها (66). بل أن تصلب رأيه وتشدده فوت عليه الفرص للخروج سالما من الانتقادات العديدة التي وجهها اليه زعماء الحركة العربية (67) . ومع هذا فقد انفتحت امام الشريف حسين مجالات جديدة للعمل السياسي العربي، وكانت مساعيه تحوم حول الاعتراف به كملك على الدولة العربية الجديدة، وحيث قام برسم حدودها وتحديد قطاعاتها الجغرافية، واعتبر ذلك من المسائل الحيوية وهي الحدود التي لم توافق عليها بريطانيا بشكل صريح ونهائي، على الرغم من الحاح الشريف حسين على ذلك . بل ان بريطانيا اعطت الشريف وعودا غامضة وضبابية بالنسبة للحدود العربية . اما فرنسا فقد حاولت ابقاء الثورة ضمن نطاق الحجاز فقط .

ان النتيجة الحتمية لهذه المحادثات العسيرة والطويلة، هو اعلان الشريف حسين عن ثورته في 10 يونيو/جوان 1916 ، وهو الإعلان الذي اعتبر كإعلان استقلال البلاد العربية عن الامبراطورية العثمانية. وقد استقبلته الدوائر الموالية لتركيا بامتعاض في حين استقبله العرب بسوريا والعراق وبعض القوميات والاجناس الغير عربية الأخرى ، في ايران ودول البلقان والشرق الاقصى وفي افريقيا، باهتمام. الا انه من جهة اخرى، اعتبره الاتحاديون ضربة خنجر من الخلف. ان محتوى بيان الثورة العربية الأولى قد ترجم بأمانة وبشفافية، عن التوجهات الفكرية والسياسية والدينية للشريف حسين، كما وعد بمثابة وثيقة اتهام ضد الاتحاديين عندما اثبت فيها كل المآخذ ضد سياستهم في اطار مركز السلطنة اولا ثم في بلاد الشام والعراق ، وكيف انهم كانوا السبب المباشر لتصدع الجبهة العربية-العثمانية، واصفا اياهم بأشنع الأوصاف (68). وفي هذا الغرض ولتبرير موقفه ، طالب الشريف حسين من الرأي العام الاسلامي مساندته في مساعيه السياسية .

صدى اعلان منشور الثورة في العالم :

هذا الموضوع لم يثر اهتمام الباحثين به الا لماما ، وهذا على الرغم من أهميته يستحق ان نخصص له دراسة ، تتمحور حول صدى اعلان المنشور الأول ، في خارج الأراضي العربية. وبالفعل لقد تم توزيع هذا المنشور بشكل موسع ، واطلع عليه الرأي العام الاسلامي المثقف من خلال قنوات عديدة بدء بجريدة **القبلة** التي انشاها الشريف ثم بواسطة قوافل الحج،

----

(66) د. خيرية قاسمية . نفس المرجع . ص 29 . راجع ايضا الشعبوني، محمد. نفس المصدر. ص 72. ان محمد باش حامبة احد قيادي الحركة الفكرية التونسية، قد قام في مجلته المغرب Le Maghreb التي انشاها في جنيف، بحملة عنيفة ضد الشريف حسين واعتبر عمله حركة غير مسؤولة ، كما عارض ادعائه للخلافة ورأى ان كل المبررات التي قدمها لكسب الرأي العام الإسلامي، مرفوضة..."

(67) امين ، سعيد ، نفس المرجع. ص 365.

(68) د. ابو دية ، سعد والنعسه، عبد المجيد مهدي، مع الحسين بن علي : مبادئ ومواقف ... من خلال الوثائق المنشورة في صحيفة القبلة التي اصدرها المغفور له الحسين بن علي 1916-1924 ، ص 9-15. عمان . 1991.

اثناء هذا التجمع الاسلامي العالمي الغير الرسمي، وكذلك بواسطة وسائل الصحافة الغربية المسيطرة على الساحة الدولية في زمن الحرب . وحيث كانت المعلومات تلعب دوما هاما لدى الاطراف المتحاربة . وعليه قامت وكالة رويتر من لندن بتاريخ 1916/8/25 بتوزيع ملخص على الصحافة الغربية " لهذه الوثيقة الهامة، وحيث لوحظ حسن ديباجتها .." انه من الافضل للشريف حسين ان يعطى اشهارا كبيرا لاقواله ووجوب وضع النص العربي في متناول مسلمي العالم اجمع..." (69). كما اثار هذا المنشور في بدايته اجماع القيادات الوطنية العربية الذين عبروا عن تأييدهم لمحتواه، وهذا ما جعل عدد من الشخصيات والكتاب العرب، يتحولون الى الحجاز وينظمون الى الشريف لتقديم خدماتهم له ، امثال عبد الرحمن الشهبندر وفوزي البكري ورشيد رضا وفؤاد الخطيب وغيرهم ... (70).

ومن جهة اخرى، نسجل ارتياح طلبة البوسنة والهرسك المسلمين بجامعة جونيف بسويسرا ، وحيث اعلنوا في بيان نشر باللغة العربية عن تأييدهم للشريف " وجميع الابطال القائمين لنصرة كيان الدين. وعليه نرى من الواجب اظهار اخلاصنا وعواطفنا للذين يبذلون اثمن ما عندهم للدفاع عن مبادئ حرية الاديان والشعوب .." (71) .

----

(69) A.E., Affaires musulmanes 1685. Evénements d'Arabie Vol V. رسالة من قنصل فرنسا بزنجبار الى وزير خارجيته بتاريخ 1916/9/12.

(70) A. E., Affaires musulmans 1568; Evénements d'Arabie Vol IV. ؛ رسالة من دوفرنس الى وزير خارجيته بتاريخ 1917/1/22. ان النشاط الذي قام به رشيد رضا بالحجاز يستحق التوقف عنده . ولدينا رسالة في منتهى الاهمية صادرة عن فؤاد الخطيب وحيث صرح :

" لقد غادرت بلادي وتركت عائلتي واحبائي بسبب المبدأ الذي اعتنقته والمتمثل في تحرير البلاد العربية. لقد حاربت الاتراك بقلمي خلال خمس سنوات في مصر، وقد وصلت الى الحجاز على امل تحقيق حلمي، وها هو الآن يسعون لضرب الاستقلال العربي ، لن اوافق مطلقا حول هذا الترتيب، ولو وافقت على ذلك ، لكنت خائنا في نظر الجميع. وهذا ما يعد اهانة حقيقية لي شخصيا. اني احلف بكل غال وثمين لدي، انه في اليوم الذي يضرب فيه الاستقلال العربي، سوف اترك الشريف لاعيش في مكان اخر ...". رسالة من ريمون، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية في الحجاز بتاريخ 1917/1/10.

راجع هذه الرسالة في :

(71) A.E; Affaires musulmanes 1684, Evénements d'Arabie vol IV.

برقية من سفير فرنسا بلندن الى وزير خارجيته بتاريخ 1916/8/28 وهذا هو النص العربي الموزع :

منشور الشبيبة الاسلامية ببوسنة وهرسك

نحن معشر بوسنه وهرسك المسلمين بالاجماع راضين عن عمل الشريف حسين أمير مكة المكرمة ونبرر قيامه "الجون تورك" الذين سببوا خراب البلاد الاسلامية وهلاك أهلها في سائر الانحاء باتخاذهم سياسة عوجاء تضر بمصالح الدين الاسلامي وكافة الموحدين .

وبما اننا نحن مسلمين مخلصين لديننا ومتمسكين بشريعتنا المحمدية، رأينا من الواجب بيان اعتمادنا واظهار موافقتنا لجميع الوسائل التي يتخذها سيادة الامير لتحقيق شعائرنا الدينية وحفظ كيان الاسلامية التي يتلاعب بها غلمان الاتراك وجعلوها آلة خرقاء من دون .../...

西曆一千九百十六年六月二十七號滿克城王公布告之譯文

[illegible]

بيان الشريف حسين بن علي باللغة الصينية

كما قرئ هذا المنشور في أهم المساجد بالصومال وتم عرضه في المدينة ليحدث تاثيرا طيبا (72). اما الحاكم العام بمادغشقر، فقد طالب بارسال هذا البيان الى عدد من الشخصيات المرموقة بالبلاد (73). أما حاكم افريقيا الوسطى الفرنسية، فقد طالب هو الأخر بارسال المنشور الى ثمانية عشر شخصية بالبلاد (74)، ونفس هذا الامر تم بالصين حيث ترجم المنشور الى اللغة الصينية وتم توزيعه بشكل موسع بعد ان كتب في اعلاه وباللغة العربية الجملة التالية: " هذا منشورنا العام الى كافة اخواننا المسلمين" وفي اسفل المنشور الكلمة التالية: " ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين" (75).

اما وزير المستعمرات فقد نصح بتوزيع هذا المنشور في " يونان Yunnan وحيث يوجد المسلمون بكثافة ..." (76). اما قنصل فرنسا بمندشوري Mandchouric والذي استلم نسختين من المنشور العربي مع ترجمة، فقد اعلن انه سوف يسلم ذلك الى مساجد المسلمين Moukden, les

---

..../.. مثل وادهان. فنرى أنه من العار والسخر ما أتى بعمله الاتحاديون المارقون من الدين الاحمدي لشد ازر ومعاونة الدولتين التوتونيتين آلمانيا والنمسا". وليس لتركيا ادنى عذر تبرر به تهورها باعلان الجهاد في مصلحة الدولتين الجرمانيتين اللتين هما عدوتان للاسلام. فهي اذا مسؤولة عن سياستها العوجاء أمام سيادة الشريف والعالم الاسلامي ونحن نعلم أساليب حكومة الجرمانية التي تحكم بها رعاياها ونعرف ما تجريه في حقوقنا وتلاعبها بامورنا الدينية.

فلا يسعنا الا الحتاف للامة العربية التي نهضت للدفاع عن حرمة الدين القويم ولاغاثة المسلمين. نسأل الله أن يوفق الشريف حسين وجميع الابطال القائمين لنصرة كيان الدين. فعليه نرى من الواجب اظهار اخلاصنا وعواطفنا للذين يبذلون أثمن ما عندهم للدفاع عن مبادئ حرية الاديان والشعوب.

الشبيبة الاسلامية

بوسنة وهرسك

(72) المصدر نفسه. Affaires musulmanes 1689. Evénements d'Arabie vol IX : برقية من وزير المستعمرات الى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 1916/11/18.

(73) المصدر نفسه، رسالة بتاريخ 1916/8/16.

(74) المصدر نفسه، رسالة بتاريخ 1916/9/6.

(75) المصدر نفسه. Affuires musulmanes 1691. Evénements d'Arabie vol XI, p. 55. وقد احتوت هذه القائمة على الاسماء التالية:

1) سلطان دودموره. 2) شريف عجيلة. 3) محمد نجار افندي وثلاثتهم بقطنون بفورلامي. 4) سلطان عبد الرحمن بقاموراق. 5) سلطان باكرمي بماسانيا؛ 6) فاكيس عثمان مصطفى؛ 7) سي محمد الحي والاثنان يقطنان بماو؛ 8) مالون محمد بفاليفانقا عن طريق ملو؛ 9) الحاج طيراز. بمعسكر حسونه دوباهاريت بماو؛ 10) فانني اوا من قبيلة زابا داس باتي؛ 11) يكوب ماك من سيلا بفوزيدا مثي؛ 12) سلطان حسن من مانا بنياري عن طريق اباش؛ 13) فقيه عبد الله بشاكوبان عن طريق اباش؛ 14) زين العابدين فقيه عبد الرحمان والاثنان يقطنان باباش؛ 16) سي محمد عبد الرحال بعيون الكبيرة؛ 17) سي عبد الرحيم خلايف، تاجر ؛ 18) الشيخ سولو مولدن من تاكلزاس (منطقة موارتا عن طريق فادا).

(76) المصدر نفسه، رسالة بتاريخ 1916/12/3.

Arons Wang Tchao-Kouci, Liou Yong-Khoux et Tie-Tch'Oucn-Heng (77). اما حكومة بانكوك، فقد ابلغت بمنشور الشريف الذي اعلن عن استقلال البلاد العربية (78). وحتى في ايران، فقد وجه احد المتفقدين وهو الحاج ميرزا حسن رشيد باه ، رسالة تأييد الى الشريف (79).

ومن جهة اخرى كانت مواقف اغلب المسلمين بالهند والمغرب العربي ومصر وطبعا مركز السلطنة، ضد منشور الشريف والذي اعتبرته هذه الاخيرة غير شرعي ومن شانه ان يمس بوحدة العالم الاسلامي. وعليه اصبحت هذه الثورة اهم مشاغل حكومة الاتحاديين (80). وقد ثارت ثائرتهم وقاموا بإعداد طائفة من الفتاوي الدينية (81) بتكفير الشريف حسن وابنائه واعتبارهم مارقين عن الإسلام ويجب على كل مسلم ان ينهض لقتالهم بحجة انهم خرجوا على الخليفة وتعاونوا مع اعداء الإسلام (82). وقد قام الاتحاديون بحملة ديبلوماسية وصحافية لكسب الرأي العام الاسلامي من خلال مريديه وانصاره والمدافعين على وحدة الدولة المركزية الترابية، بدء بتوجيه وفد من اعيان دمشق الى الشريف حسين للعمل على إعادة حسن العلاقات والثقة. الا ان هذه الاجراءات المتأخرة ، لم تعط اية نتيجة وان الشريف رفض حتى استقبال الوفد (83).

اما حملة الاتحاديين الصحفية، فقد قاموا بها من خلال قنوات السفارات العثمانية في الغرب وكذلك الصحافة المحلية ؛ ففي برلين نشرت السفارة العثمانية التوضيح التالي : " اننا نعد انتشار هذه الاخبار من قبيل الكذب المتعمد، وقد تم ذلك بغرض تضليل الرأي العام وعلى الخصوص منه ما كان محايدا . اننا نعلم ان الانكليز كانوا دوما يسعون الى اضعاف وحدة سلطة الخليفة المتمثلة في السلطان، في حين انهم يمنحون هذا اللقب للشيوخ الذين لا يملكون الحق في ذلك، لقد وجد خلفاء كاذبون ليس فقط على صعيد مصر، ولكن ايضا في بقاع اخرى عديدة ، الا انه لم يحالفهم النجاح قط. ان الاخبار المتعلقة بعصيان بعض القبائل العربية، هي بالنسبة الينا، اخبار صبيانية وخيالية،

---

(77) . رسالة بتاريخ 9/12/ 1916.

(78) المصدر نفسه . Affaires musulmanes 1692. Evénements d'Arabie Vol XII ؛ رسالة بتاريخ 1916/11/25.

(79) المصدر نفسه ، رسالة بتاريخ 1917/1/15 .

(80) Dumont, Paul et Georgeon, François "La mort d'un Empire (1908-1923)" in, Histoire de l'Empire Ottoman, sous la direction de Robert Mantran, p. 625, Publications Fayard-Paris, 1989.

(81) د. قاسيمية خيرية . نفس المرجع . ص 30 .

(82) امين سعيد . نفس المرجع . ص 155. كيف يفسر اذن تعاون الاتحاديين مع المانيا يومئذا

(83) A. E ; Affaires musulmanes 1684. Evénements d'Arabie Vol IV. برقية من دوفرنس الى وزير خارجيته بتاريخ 1916/9/23.

ونحن على استعداد لتكذيب هذه الأساطير عن طريق الصحافة بشكل قطعي ..." (84).

أما السفارة العثمانية بلا هاي ، فقد نشرت هي الأخرى التصريح التالي : " ان موظفا لدى الحكومة التركية، حاد عن اداء واجباته نتيجة طموحه الشخصي والذهب الانكليزي . ان تاريخ الامبراطورية التركية (كذا) قد سجل مغامرات العديد من المتسكعين، والذين كانوا دوما في حالة هيجان تحت تاثير المشاعر المعادية الخسيسة والمستوردة من الخارج، ليطالبوا اما الامامة او الامارة او الخلافة .." (85) . اما الصحف التركية الصادرة في هذه الفترة، فقد نشرت العديد من المقالات التي كانت تترجم من خلال المصطلحات المستعملة يومئذ، عن المناخ الفكري للمسؤولين الاتحاديين وعميق غضبهم ومرارتهم . ألم يكتب رئيس تحرير اقدام ما يلي : " هكذا كان الشريف حسين باستنجاده لدولة دخلت الحرب لتدمير الاسلام واعلان هدفه رسميا وقيامه بالثورة على خليفته الشرعي، قد وضع نفسه خارج العائلة الاسلامية وأصبح نتيجة لذلك، قاطع طريق مبتذل، وعليه فقد وجب قتله ." (86) . اما محيي الدين باي ، رئيس تحرير جريدة طنين ، فقد كتب حول هذا الموضوع : " ليس لسوريا في الوقت الحاضر الا جرحا واحدا : تمثل في هذا الغم والأسف التي اصابها نتيجة الموقف الملعون لهذا الخائن الذي باع بمكة، ضميره مقابل الذهب الانكليزي" (87) : ومن جهة أخرى كان الوالي العثماني بمكة قد وجه الى الرأي العام الاسلامي المكي رسالة مطولة ضد الشريف حسين (87 مكرر) .

نشر وتوزيع المنشور الاول خارج الحجاز :

للاجابة على هذا السؤال، نؤكد اولا ان هذا المنشور كان بمثابة وثيقة اتهام ضد سياسة الاتحاديين وبالتالي ضد الخليفة العثماني، وهذا ما جعل السلطات البريطانية لا تشجع على نشره بالهند " كما جاء في صيغته الاولى محررة من طرف الشريف حسين، وهذا نظرا لعطف مسلمي الهند (على الخلافة) وبالتالي فان نشره، سوف لن يعطي اثرا طيبا" (88) .

وانطلاقا من ذلك، كان المندوب السامي البريطاني بالقاهرة يرى ان نشر المنشور الشريفي

---

(84) المصدر نفسه . Affaires musulmanes 1681; Evénements d'Arabie vol 1.

(85) مقال صدر بتاريخ 1916/8/5 .

(86) مقال صدر بتاريخ 1916/10/14 .

(87) مقال ظهر بتاريخ 19 / 12/ 1916 . ان موضوع الانتاج الصحفي الضخم المؤيد للاتحاديين او ضدهم وبعدة لغات، يحتاج بالفعل من يدرسه حتى تتم دراسة الدوافع الحقيقية وخلفيات كل الاطراف، وهي المقالات التي بعثت الشقة بين الطرفين .

(87 مكرر) راجع نص هذه الرسالة اسفله . ص 000 .

(88) A.E; Affaires musulmanes 1683. Evénements d'Arabie vol III . رسالة من دوفرنس الى وزير خارجيته بتاريخ 1916/7/28.

كاملا او موجزا عنه، لا يمثل فائدة تذكر الآن(89). الا ان الشريف وحرصا منه على تبرير موقفه ، سعى الى تعميم هذا المنشور على الرأي العام العربي-الاسلامي بمصر، وكان يعلق أهمية كبيرة على نشره في صحف القاهرة. إلا ان السلطات البريطانية التي عطلت بادىء الأمر نشره اكثر من شهر ونصف ، قبلت بنشره اخيرا في مصر يوم 29 اوت 1916 " مشوها مبتورا وبعد حذف نحو نصفه وتحرير وتعديل معظم جمله" (90).

ونفس هذا الموقف تبنته فرنسا، التي لا تستطيع ان تقبل بتوزيع هذا المنشور في صيغته الأولى الكاملة. ولو تم ذلك لأثار هيجانا خطيرا ، وهي غير مستعدة للسيطرة عليه. مع العلم ان قسم المراقبة بالجزائر قد منع نشر هذا المنشور (91). وقد اقترح وزير الشؤون الخارجية الفرنسي والذي عرف جيدا ملف الشرق الأوسط على المقيم الفرنسي بالمغرب الاقصى، نشر صيغة موجزة عنه نظرا الى : " انه من المؤكد ان هذه الوثيقة سوف تصل كاملة الى علم مواطني ممتلكاتنا، وازاء هذه الظروف ، فإن توزيع هذا البيان في صيغتين اثنتين، تكون احدهما من اعدادنا واقل اكتمالا من الاولى، وهو من شانه ان ينزع الثقة في صحة هذه الوثيقة ، بل ويخاطر ان يتحول هذا المنشور الى سلاح ضدنا .." (92). وهناك تدخل فرنسي اكتسى اهمية خاصة، تمثل في تدخل فرنسا لدى السلطات البريطانية بالقاهرة، باقترا ح من ليوتي Lyautey " حذف فقرتين اساسيتين من البيان ...." (93). وبالفعل تم توزيع هذا المنشور بعد ان حذفت منه الشعارات التالية : «قوة الثورة، جمعيتهم الثورية، ثورة الامة ، ثورة الدولة، التنكيل بالعرب، من قتل اللغة العربية قتل الاسلام، ما خصوا به العرب ولغتهم من الاضطهاد فهو اعظم ما جنوه على الدين والدولة من الفساد، صلبوا زعماء العرب حتى لا يطمع عربي بأن يقول ان لغتنا هي الاسلام، اذا ذل العرب ذل الاسلام» (94).

---

(89) المصدر نفسه . Affaires musulmanes 1682; Evénements d'Arabie Vol II . رسالة من وزير الخارجية الفرنسية الى السفير الفرنسي بلندن بتاريخ 1916/7/21.

(90) امين ، سعيد ، نفس المرجع ، ص 163 .

(91) Affaires musulmanes 1681; Evénements d'Arabie Vol I . برقية بتاريخ 1916/6/23 .

(92) A.E. Affaires musulmanes 1683. Evénements d'Arabie Vol III ؛ رسالة من وزير الخارجية الفرنسي الى المقيم العام بالرباط بتاريخ 1916/7/23.

(93) A.E. Affaires musulmanes 1682; Evénements d'Arabie Vol II ؛ برقية من وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 1916/7/18 .

(94) قارن بين نصي المنشور الاول في كل من : سليمان موسى ، المنشور ... نفس المرجع ، ص 109 - 111 والنص الكامل المنشور في: د. سعد ابو دية وعبد المجيد مهدي النعسه ، نفس المرجع ، ص 9 - 15 .

ان موضوعا يتناول خلفيات نصوص المناشير الثلاث ، العربية الصادرة في جريدة القبلة ، ثم الصادرة بالقاهرة واخيرا الموزع في شمال افريقيا ، سيكون مفيدا جداً .

على ان صيغة هذا المنشور قد ابقت على نقطة هامة تناولت سياسة الاتحاديين القاضية بالتنكيل بالعرب احياء وامواتا، وذلك عندما نبشوا قبر الأمير عبد القادر الجزائري ، وفي ذلك اكثر من دلالة ومعنى بالنسبة للجزائري والمغربي والعربي، باعتبار ان الامير عبد القادر يعدّ شخصية عربية نضالية ومعروفة على مستوى البلاد العربية والإسلامية جميعها ، وكان الهدف من ذلك هو تكثيف اثارة غضب مشاعر الناس ضد الاتحاديين!

ومما لا شك فيه ان صيغة المنشور الموزع على القيادات السياسية الرسمية والدينية بالمغرب العربي وافريقيا الغربية "الفرنسية"، كان قد اعدتها دوائر الاستخبارات الفرنسية بالقاهرة، وهذا مراعاة لمصالحها الحيوية في المنطقة، وهو ما يفسر الطريقة التي اتبعتها السلطات الفرنسية عندما افرغت هذا المنشورمن محتواه الفكري-السياسي والعقائدي الذي تضمنه بادئ الأمر، كما يترجم ايضا عن خلفية الأهداف الحقيقية للحلفاء والتي كان من المستحيل على الشريف حسين استكناهها يومئذ او حتى توقعها منهم .

ان اهداف السياسة الفرنسية في مستعمراتها كانت تقضي بالحصول على موافقة وتأييد رجال الدين والوجهاء والشخصيات الهامة لهذه الحملة التي نادي بها الشريف حسين . وعليه تم تبني فكرة توزيع هذا المنشور بشكل موسع جدا. وقبل ان يمنح هذا المنشور مزيدا من المصداقية المّكنة، ذكر دوفرنس الى وزير خارجيته : " انه فكر بادئ الأمر ان يلتمس من قسم الاستخبارات البريطانية ان يتم توجيه هذه الرسائل مباشرة من مكة او المدينة متضمنة منشور الشريف . وقد وجب ارسالها على يديه بوضع طابعه الجديد عليها. وكنت اعتقد ان وضع هذا الطابع البريدي بمكة من شأنه ان يضفي على الرسائل الموجهة ، صفة الشرعية والمصداقية في أعين الاشخاص الذين سوف يستلمونها .." (95). وقد تم اختيار الاسماء من طرف السلط الادارية الاستعمارية يومئذ في الجزائر (96) وتونس والمغرب الاقصى وموريتانيا والنيجر والسنيغال وغانة وساحل العاج

----

(95) A.E. Affaires musulmanes 1686; Evénements d'Arabie Vol V ؛ رسالة بتاريخ 1916/9/3.

(96) اليكم قائمة اهم الشخصيات ورجال الدين الجزائريين والذين اقترحت السلط الفرنسية اسماءهم : 1) سي محمد التيجاني ، شيخ زاوية التيجان بعين مهدي عن طريق لغواط ، ولاية الجزائر ؛ 2) سي محمد الهاشمي بن ابراهيم ، شيخ زاوية القادرية عن طريق الواد ، ولاية قسنطينة ؛ 3) العروسي شيخ زاوية التيجاني بغمار عن طريق الوادي ، ولاية قسنطية ؛ 4) سي احمد الشريف تكوك ، شيخ الطريقة السنوسية ، ولاية وهران ؛ 5) سي عبد القادر بن سي الدين بن حمزة ، آغا اولاد سيدي الشيخ ، ولاية وهران ؛ 6) سي بو عزوز بن احمد بن قانة ، آغا بسكرة ؛ 7) سي الحاج بلقاسم بن الحاج احمد ، شيخ الطريقة الرحمانية بوسعادة ؛ 8) سي عميرة بن سيدي بن عامر ، شيخ الزاوية الرحمانية بطولقا ، بسكرة ؛ 9) سي محمد الغير بن الشيخ مختار ، شيخ الزاوية الرحمانية ، اولاد جلاب ، بسكرة ؛ 10) سي الميسوم عبد الرحمن بن الشيخ الميسوم ، شيخ الزاوية الشاذلية .... ؛ 11) سي الطاهر رجب بن الشيخ الحسين ، شيخ زاوية ...... قسنطينة ؛ 12) سي باش طارزي عبد الكريم ، المفتي الحنفي ، قسنطينة ؛ 13) سي ميلود بن الميهوب ، المفتي المالكي ، قسنطينة ؛ 14) سي محمد الرزقي ، المفتي المالكي بالجزائر ؛ 15) سي محمد بن قندورة ، المفتي الحنفي بالجزائر ؛ 17) سي محمد لعول .../...

والهند الفرنسية وغينيا الفرنسية ومدغشقر وافريقيا الاستوائية الفرنسية (97). ووفقا لهذا المسعى، قامت مصالح الاستخبارات الانكليزية بارسال ستة عشر نسخة من منشور الشريف محررة بخطه وتحمل خاتمه وهي موجهة الى عدد من الشخصيات التونسية والمغربية. اما الانكليز، فقد درسوا توزيع المنشور في كل من عدن ومصر والسودان (98)؛ ولا بد ان نذكر في هذا السياق لائحة التايبد والموافقة التي وجهها عدد من الشخصيات الفكرية بام العساكر بالجزائر الى الشريف حسين (99).

* * *

لا نستطيع في هذه الدراسة استعراض نتائج هذا المنشور على مستوى البلاد العربية، فهذا موضوع يستحق لوحده ان يخصص له كتاب بحاله، ولكننا اردنا، نتيجة المعلومات الجديدة التي تحصلنا عليها ، ان نبرز توجه البحث حول هذا الموضوع ودعوة المؤرخين للاستفادة من ارصدة المعلومات المتوفرة في الأرشيفات الفرنسية الغنية .

.../... مال الله عدة ، شيخ الطريقة الدرقاوية ، زاوية اولاد الاخضر عن طريق تيارت ؛ 18) سي مولاي بن احمد بن يوسف ، الما تيوت عن طريق عين صفرة ؛ 19) سي محمد بلقاسم بن الاحرش ، الما بجلة ؛ 20) سي محمد بن شريف بن الاحرش / الما بلقوات ؛ 21) سي بوطيبة بن يامينا ، الما خميس بتنس ؛ 22) سي الصحراوي بن محمد ، الما جبل ناظور ، تيارت ؛ 23) سي الطاهر الزاهي ، قايد بعنابة؛ 24) سي شعيب قاضي مدينة تلمسان ؛ 25) سي محمد بن حنحيس ، قاضي Orleanville ؛ 26) سي احمد بن الشريف بن علي الشريف ، قايد ورئيس زاوية شلالة بمنطقة ايكو . نقلنا هذه الاسماء عن قائمة حررت باللغة الفرنسية وتوجد في :

A.E., Affaires musulmanes 1683, Evénements d'Arabie

عن برقية وجهت الى وزير خارجية فرنسا بتاريخ 1916/8/7 .

(97) سوف نقوم بنشر كل اسماء الوجهات الذين اقترحتهم فرنسا، في كتابنا المزمع نشره قريبا . راجع نص المنشور الموزع في المغرب العربي : موسى سليمان " المنشور الاول للثورة العربية الكبرى وتوزيعه في شمال افريقيا" في المجلة التاريخية المغربية، عدد 7-8، ص 106 - 11 . تونس ، 1977.

(98) المصدر نفسه . Affaires musulmanes 1686. Evénements d'Arabie Vol V ، برقية من الملحق العسكري بالقاهرة الى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 1916/10/4.

(99) A.E; Affaires musulmanes 1687. Evénements d'Arabie Vol VII ؛ رسالة من الحاكم الفرنسي العام بالجزائر الى وزير الخارجية الفرنسي بتاريخ 1916/10/26 . ضمت هذه القائمة الاسماء التالية :

1) شنتوف عبد القادر بن عبد الله ، صاحب المشروع ؛ 2) ...... محمد بن محمد ، قاضي ام العساكر ؛ 3) عبد القادر بن المكي ، امام سعيدة ؛ 4) العروسي البشير بن الحسين ، مدرس ؛ 5) مصطفى بن عبد الجبار ، قاضي سعيدة ؛ 6) عبد القادر بن الصديق ، مفتي ام العساكر ؛ 7) محمد بن الحاج محمد ، مدرس بام العساكر ؛ 8) محمد بن الطيب ، مفتي ام العساكر ؛ 9) بوعمران بو عبد القادر ، شيخ الطريقة الشاذلية بام العساكر ؛ 10) بو زار محمد بن علي ، قاضي فرندا ( ) ؛ 11) بن ابراهيم محمد بن مصطفى ، رئيس الدرقاوية؛ 12) بو دربعة بن ابراهيم ، ابن الشيخ البودالي ، رئيس ؛ 13) بن شنان محمد ، المندوب المالي .

في اخر هذه القائمة بطلب الحاكم الفرنسي العام بالجزائر من وزير الخارجية الفرنسية ، ارسال هذه القائمة الى الشريف بن حسين . راجع:

A.E., Affaires musulmanes 1687., Evénements d'Arabie Vol VII.

لا شك ان طموح الشريف حسين، كان عاملا مهما في هذا التحرك السياسي، فقد سعى بادئ الأمر مع الاتحاديين للفوز باستقلال الحجاز وجعل إدارته وفقا عليه وعلى ابنائه. وها هو امام تحولات تاريخية لتحقيق حلم الجيل العربي فيه والقاضي بالوحدة وبروز الدولة العربية المستقلة. وقد كتب " ان اعمالنا لم تكن لغايات وميول شخصية، بل ان كل شيء كان نتيجة مطالب ورغائب شعبنا، واننا لسنا سوى ناقلين ومنفذين لرغائبه ...(100)" بل ان الشريف تبنى في هذه المرحلة لغة القومية العربية وكان فخورا باعلان الثورة (101). وفي الرسالة الهامة التي وجهها الشريف حسين الى رئيس الجمهورية الفرنسية ريمون بوانكري، كتب الشريف ما يلي : " ان املنا وطيد بأصالتكم وحسن مقاصدكم الجليلة، بانها ستبذل كل ما في وسعها من المساعي الودية لتعضيد نهضتنا المنبعثة من مبدإ الدفاع عن الحق والكيان الاسلامي .. وان تكون الأمة الفرنسية وحكومتها المبجلة، ستكون من خير الأعوان لهذه المملكة العربية الجديدة(102). مؤكدا ايضا العمل على استخلاص سائر الاقسام العربية التي لم تزل الى الآن تحت اشغال العدو المشترك (كذا) ، وبالطبع فان هذه المملكة ستكون مع حلفائها العظام (كذا) على طريق الود الدائم وتبادل المنافع المشتركة(103).

ان المؤرخين والباحثين سوف يجدون في هذه الرسالة وغيرها من المعلومات عددا من الدلالات التاريخية من خلال المصطلح الذي استعمله الشريف حسين والذي يؤكد على مدى القطيعة السياسية والحضارية مع الاتحاديين . أما نعت الحلفاء بالعظام، ففيه اكثر من مؤشر على التوجه العام للشريف للعمل على تكثيف التعاون مع فرنسا وانكلترا حتى يقفا مع الدولة العربية الموعودة باستقلالها.

ومن جهة اخرى اثارت مسالة لقب الشريف كثيرا من اللغط والاحتجاج والأخذ والعطاء . ففي برقية وجهت الى وزير الخارجية الفرنسية، ذكر الشريف عبد الله وزير خارجية الدولة العربية الناشئة ما يلي : " اني سعيد ان احيطكم علما ان الوجهاء وعلماء البلد وكل طبقات الشعب المجتمعين اليوم، قد اعترفوا بالاجماع وبجلالة على ان يكون حسين بن علي الشريف، ملكا على الأمة العربية . ان الامة العربية تأمل كثيرا ان يعترف بها عضوا عاملا في جمعية الأمم، وانها ستكون عند حسن الظن في المستقبل بدعم من العلي القدير .." (104).

---

(100) سعيد ، امين ، نفس المرجع ، ص 78.

(101) Yapp. op. cit., P. 285.

(102) راجع دراستنا التالية المنشورة اسفله ص 81-87 . ولمزيد التحقيق في الموقف الفرنسي تجاه الثورة العربية راجع حكمت ياسين، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية ، منشورات الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1981 .

(103) المرجع نفسه .

(104) وزارة الخارجية الفرنسية Affaire Musulmanes, Evénements d'Arabie برقية بتاريخ 1916/10/31.../...

وقد اكد دوفرنس في برقيته من القاهرة الى وزير الخارجية " لقد تم هذا الصباح 31 اكتوبر 1916 حفلة المبايعة والاعتراف بجلالته كملك على الامة العربية وكرئيس دين في انتظار اتفاق المسلمين حول هذا الامر واخذهم قرارا بشأن خليفة المسلمين ..." (105). كما احاط دوفرانس، فيما بعد وزير خارجيته "ان هذا الاجتماع نظمه عبد الله بمنتهى السرية للوصول الى السلطة في المستقبل . لقد اضيئت الانوار ونودي بالفرح ...". الا ان فرنسا لم تقبل بلقب ملك العرب او سلطان العرب ولا ملك البلاد العربية، بل اقرت مع بريطانيا الاعتراف بالشريف ملكا على الحجاز فقط . وقد استلم الشريف رسالة محررة باللغة العربية من رئيس البعثة العسكرية الفرنسية بالحجاز جاء فيها : " اتشرف باعلام جلالتكم بان حكومة الجمهورية بعد الاتفاق مع حليفتها بريطانيا العظمى وروسيا قد كلفتني اعترافها اياكم ملكا للحجاز . وتترجي حكومة الجمهورية الفرنسية من جلالتكم في هذا الاقرار دليلا جديدا على علو اهتمامها بدعوتكم ورغبتها في ان تحصل بلادكم الحجازية غاية مرادها ... تحت لواء دولتكم الهاشمية (106) ".

وفي رسالة اخرى اكدت الحكومة الفرنسية اعتراضها على تسمية الشريف ملكا على الامة العربة : " ... ان الحكومة الفرنسية ودولتي بريطانيا وروسيا يعتبرن (كذا) في الحاضر وسيدا ومن (كذا) على اعتبار جلالتكم رئيسا .. على الامم العربية في نهضتها على الحكومة التركية .. ويسرهن (كذا) ايضا الاقرار كون جلالتكم زعيما مستقلا حقيقة على الحجاز، الا ان الدول المذكورة لا يتيسر لها في الحاضر ان تعترف باي لقب يحتوي على معنى الملك قد يكون سببا لتشتيت شمل العرب في هذه الظروف وربما اصبح مضرا للفصل الانتهائي (كذا) للمسائل العربية على دعائم مرضية .." (107).

ومن جهة اخرى استلم الشريف رسالة من الحكومة الايطالية باللغة العربية تعترف به: جلالة ملك الحجاز (108). وانطلاقا من ذلك سوف يعرف الشريف حسين كثيرا عن الحقائق المؤلمة والمخيبة للآمال عن موقف الحلفاء الذين نعتهم بالعظام في رسالته لرئيس الجمهورية الفرنسية .

.../... في نفس هذه الفترة الزمنية ، ارسل وزير خارجية الشريف حسين عددا من الرسائل الى الحكومات الاوروبية يخبرهم جميعهم بأمر المبايعة ويناشدهم الاعتراف بوالده كملك على الامة العربية ، وانطلاقا من ذلك سجلنا عددا من ردود الفعل الغربية الرافضة عموما لذلك كموقف الحكومة الدانماركية الفاضح : راجع :

A.E., Affaires musulmanes 1691;

رسالة من سفير فرنسا بالدانمارك الى وزير خارجيته بتاريخ 1916/12/21 .

(105) المصدر نفسه ، برقية بتاريخ 1916/10/30 .

(106) A. E; Affaires musulmanes 1691. Evénements d'Arabie Vol XI ؛ رسالة بتاريخ ربيع الاول 1325.

(107) المصدر نفسه ، رسالة بتاريخ 10/ 12/ 1916.

(108) المصدر نفسه ، رسالة بتاريخ 6/ 1 / 1917 .

فبعد اعلان روسيا البلشفية عن سرّ اتفاقية سايكس-بيكو القاضية بتقسيم المنطقة العربية ـ بريطانيا وفرنسا، تساءل الشريف حسين حول حقيقة ذلك. وقد ردت عليه بريطانيا " بانها تنكر الاتفاق جملة وتفصيلا . وعلى الرغم من المقابلة التي اجراها كل من سايكس وبيكو بالشريف حسين بجدة، حول عديد القضايا المعلقة بخصوص طبيعة الجبهات العسكرية في العراق وسوريا ومصر ، بدأت تظهر للشريف خيوط اللعبة السياسية البريطانية-الفرنسية في المنطقة وعدم اخلاصهما ووفائهما للعهود التي قطعت له. وكان عليه ان ياخذ بالإعتبار ذلك ويسعى من منطلقات ومساع جديدة التذكير بذلك عن طريق الاحتجاج الكتابي وارسال البرقيات تارة وتوجيه ابنيه فيصل وعبد الله في مهمات جد عسيرة بل ومستحيلة الوصول الى نتائج. ان المهمة التي اداها ابنه فيصل في مؤتمر السلام بباريس، كانت تمثل المحاولة الأخيرة لتذكير بريطانيا وفرنسا بأن " والده لا يطلب ضم شبر ارض واحدة الى مملكته. ولكنه يطلب للعرب حق تقرير مصيرها بحسب نظام التوكيل الدولي الذي يعتقد ان البريطانيين مستعدون لتطبيقه ... (109).

وبعد انتصار الحلفاء وانكسار الدولة العثمانية في كل الجهات العربية، نتيجة الخطط العسكرية البريطانية ، وحيث بلغ عدد جنودها العاملين في الشرق الاوسط المليون جنديا ، ثم قيام اول حكومة عربية بدمشق لمدة وجيزة، بزعامة فيصل والتي سرعان ما قضي عليها، لتحتل فرنسا بلاد الشام برمته، كان على الشريف حسين ان يتراجع على تحقيق الطموحات العربية التي هزت ضمير الأمة العربية بالمشرق، وحيث اوكلت اليه شرف زعامتها وقيادتها منذ اللحظة الأولى، واضطر مكرها ان يقبل بمصيره ملكا على الحجاز لا غير، وليرى فيها مأساة تقسم الأراضي العربية بين فرنسا وانكلترا وضياع فلسطين وذهاب مساعيه واحتجاجاته وبياناته وشكاويه الى الامة البريطانية ومجلس الأمم يومئذ، ادراج الرياح ولم تأت بنتيجة تذكر. بل ان بريطانيا التي اصبح يزعجها هذا العدو المخلص ، كافأته شر المكافاة بنفيه فيما بعد الى قبرص .

ان الفترة الزمنية القصيرة التي قضاها الشريف حسين ملكا على الحجاز ترجمت عن الرجل الدولة ، الذي تبنى علما جديدا وضرب عملة باسمه وكان له هوى في تقليد الخلفاء، بتنكره في بعض الليالي وطوفه الأزقة والأسواق، بل كان يدور على لسانه دوما اي من القرآن والأحاديث النبوية . وقد انشأ جريدة القبلة التي اولى احد رئاسة تحريرها الى رجل عالم مغربي هو الشيخ الطيب الساسي. وهو ما يترجم عن انفتاحه على الطاقات العلمية العربية انّى كان مصدرها (110).

* * *

---

(109) سعيد، امين . المرجع نفسه . ص 344.

(110) د. سعد ابو دية . نفس المرجع . ص 149

لقد كان الشريف حسين احد رموز الحركة العربية، وقد اجتهد مخلصا ان يكون وفيا لطموحاتها ونبل اهدافها السامية، الا ان النجاح لم يحالفه للأسباب العديدة التي ذكرناها سابقا. ويكفيه نبلا وقوفه بحزم امام بريطانيا التي خانته ، وحيث اداه ذلك الى التضحية بكل شيء.

اننا نذهب الى الاعتقاد ان الشريف حسين مازال يحتاج الى تأطير تاريخي اكاديمي جديد، اذا تمكنا مستقبلا من توظيف ارصدة الوثائق الفرنسية والعثمانية والأرشيفات الخاصة وهي التي تحتاج الى جهود المخلصين من الباحثين والمؤرخين لجمعها وابرازها ونشرها لتوظف من أجل معرفة اشمل وانصف للملف الشرق الأوسطي اثناء الحرب العالمية الأولى .

* * *

وثيقة رقم 1

بيان الشريف علي حيدر الى الراي العام الاسلامي (*)

بسم الله الرحمان الرحيم

هذا خطابنا الى اهل وطننا الحجاز ومن يليهم حاضرهم وباديهم وقاصيهم ودانيهم اننا نحمد اليكم الله الذي انبتنا واياكم في عهد الاسلام واعزنا جميعا بمحمد عليه الصلاة والسلام وجعلنا واياكم من جيرة البيت الحرام واوجب لنا ولكم ما اوجب للجار من الحق والذمام حمدا لايفي بعشر معشاره الكلام ولا ينهض به القلم ، ولو ان ما في الارض من شجرة اقلام ونصلي ونسلم على سيدنا وجدنا خير الانام المنتخب من صميم العرب في السنام الذي قرن طاعة الله بطاعة الامام عملا بقوله تعالى (واطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم) نصا تبين فيه الحلال من الحرام والنور من الظلام وعلى آله البررة الكرام واصحابه الذين بلغوا بطاعته اسنى ومقاما .

وبعد فلا يخفى عليكم انه مضى على ظهور الاسلام ثلاثة عشر قرنا ، تقلبت عليه فيها احوال كثيرة وادوار مختلفة من بسط وقبض ... وخفض وزلزال وتمكين في الارض وجرى له يخسر كثيرا من ممالكه ويستردها ويفقد جما من اسباب قوته ويستجدها ولم يدع الآن بلدا للاعداء ولا الاعداء بلدا للاسلام ، الا عالجوا اجتياحه واجالوا قداحه الا بلدنا الحجاز الشريف حماه الله ، فلم يذكر

(*) عثرنا على هذا البيان من الشريف علي حيدر في: A.E.; Guerre 1914-1918; N. 1681; Affaires musulmanes: Evénements d'Arabie: quant à sa Traduction en français, elle figure in, pp. 9-17.

التاريخ فيما بسط ولا ارتنا العبر فيما غير انه ارتقت اليه لعدو الدين همه ولا المت به من غير ملة الاسلام ملمة، بل بقي الحجاز رغم جميع الغوائل وما تعاقب على البلاد من الدول الدوائل بكرا من الممالك لم يطئها فاتح ولا امتدت اليها يد طامح حرمة من الله لبيته المعظم ومعجزة لصفيه صلى الله عليه وسلم . وقد وطئ العدو مصر وسودانها والهند وبنجابها ونجف واحقا ... وعمان واطرافها. وهذه المرة تعرض للبصرة واهوازها ، ولكنه لم يجسر يتعرض لمكة وحجازها بمكان الحجاز من حرمة المسلمين وهوى افئدة المؤمنين ، ومكان اباتنا امراء الحجاز من المحافظة والمناصحة تكتفي عناية الخلفاء والسلاطين ، وما زال كذلك حتى نشبت هذه الحرب العامة وقامت الدولة العثمانية فيها باخذ منارات الاسلام المقام الباهر الذي اعاد الاسلام سيرته الاولى ، فلم يكن للعدو ان يتمنى من الحجاز ما وجد في غيره مجالا، ولا ان يرجو في جوار الحرمين الشريفين مجالا وهو لم يجد فيما هو ايسر مجالا فاذا بالشريف حسين بن عون هو نفسه يواطئ العدو على الحجاز ويحاول ان يجعل بيت الله الحرام وقبلة الاسلام ومرقد الرسول عليه الصلاة والسلام ، تحت حماية دولة مسيحية محاربة للدولة العلية باذلة قصارى جهدها في اذلال جميع الملة الاسلامية وجميع ما يموه به الشريف المشار اليه ، تبريرا لخروجه على الدولة وتخريجا لقضية ضربه المسلمين بعضهم ببعض لا يفيده شيئا امام الله الذي يعلم السرائر وامام رسول الله الذي شرعه مثل الشمس ظاهر ، ولا امام الامة الاسلامية التي تعلم الانكليز وما يصنعون وما مثله ومثل ما يدعيه الا كما قل الله تعالى (يحرفونه من بعد ما عقلوه وهو يعلمون) . ولن يغلب الشريف حسين حقيقة ولن يخفي واقعا ولن يقنع احدا ، انه يقدر ان يكون اميرا مستقلا بنفسه وان يخاصم الدولة العثمانية فضلا عن ان يلبي شؤون الاسلام ويدعي لنفسه الكفاية اللازمة لحمايته . فلا بد له اذا حتى يتمكن من مناصبة دولة عظيمة كالدولة العثمانية من ان ينضوي تحت جناح دولة اجنبية عظيمة ، وهذا ما فعله الان باتفاقه مع دولة انكلترة التي تخدعه وتزين له امانيه وتخرجه من طاعة الدولة التي تحميه ، حتى اذا تمكنت من الامر لا قدّر الله كان ماله معها كمال خديوي مصر وسلطان زنجبار وامير الحج وامراء الهند وسائر الحكومات الاسلامية التي وقعت في حبائل الانكليز ومن راى العبرة في غيره فليعتبر. وكان على الشريف حسين قبل ان يجعل الضرغام صيدا لبازه ان يفكر بان انكلترة لا تمد بصبعه الا لكي تحل بربعه وانها متى دخلت اصبعها في الحجاز لم تبرح تتمكن شيئا فشيئا حتى تستصفيه وتلحقه بغيره مما اخذته اختلافا . فليسال اولئك الامراء الذين تقدموه وليتصفح تلك المعاهدات التي امضتها انكلترا معهم ومع غيرهم . يعلم كيف صاروا بعد الوجود الى العدم ، وكيف عادوا قارعين سني الندم ومهما غالط الشريف حسين في كونه لا يستطرق الحجاز لجنود مسيحية وانما تمدّه انكلترة بجنود مسلمين ، فان الجند الذي يأتي من قبل الانكليز مسلمين كانوا او نصارى ، فما داموا خادمين دولة مسيحية مقاتلين في صفوفها متقلدين لسيوفها يحاربون بامرها ايا كان حتى

ابناء دينهم كما لا يخفى . فلم يبق فرق بين المسلم والنصراني اذ ان النتيجة على الاسلام واحدة ، والاصل هو الرأس والات تابعة وما من مكابر في كونه لو فاز هولا الجنود المسلمون "يزعم الشريف" على العساكر العثمانية ، لكانت العاقبة هي فوز الكثرة المسيحية على الدولة العثمانية الاسلامية ، بل كانت النتيجة والعاقبة بالله استعلاء النصرانية على الاسلام في مهد الاسلام ودار محمد عليه الصلاة والسلام ، وسواء كان هؤلاء الجنود المسلمون الذين هو في خدمة النصارى او نفس الشريف حسين الذي انضم اليهم ، فانهم شرعا في حكم الاسلام قال الله تعالى (ومن يتولهم منكم فانه منهم) واحتجاجه بكون الدول العلية حالفت الالمان وهم نصارى فجاز له هو ان يحالف الانكليز. فالدولة العلية حالفت الالمان لتضرب بهم دولا مسيحية ثانية ولتستقيم بهم على الاخذ بثار الاسلام من اعدائه منتهزة فرصة اختلافهم لتزيدهم انشقاقا . وهكذا توفقت الى ان رات بعضهم معذبا بايدي بعض جزاء اعنائهم للمسلمين ، وفاقا على ان الالمان وان كانوا نصارى فلم يملكوا شبر ارض من ديار المسلمين ولا ضربوا الذلة والمسكنة على 150 مليون مسلم نظير الانكليز الذين استرقوا اجل بلاد الاسلام واسترقوا اهلها وصار قصارى همهم ان يلاشوا للاسلام كل قوة سياسية وان يجردوه من كل سلاح حتى لا يحدث المسلمون انفسهم في يوم من الايام بالخروج عليهم واول شيء يبادرون اليه ، ان تم لهم من الامر شيء في الحجاز لا سمح الله هو تجريد العرب من اسلحتهم اولا بصورة الشراء كما فعلوا بعشائر العراق وعمان وجنوبي اليمن . وكانت فتنة مسقط المعلومة بسبب اخذ السلاح وثانيا بصورة التجريد بالقوة كما فعلوا بعشائر مصر والسودان حتى اذا ارادوا ان يجولوا خلال الديار لم يقدر العرب دفعهم عنهم وعليه فلا مناسبة بين محالفة الالمان ومحالفة الانكليز ولو كانوا من مذهب واحد والله تعالى يقول (لا ينهاكم الله عن الذين يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم منكم فاولئك الظالمون) والانكليز اخرجوا بلاد الهند الطويلة العريضة ومصر والسودان وزنجبار والصومال وقسما من جزيرة العرب وغيرها من ملك الاسلام وملكوها واعادوا اعزة اهلها اذلة ، ولم يكتفوا بذلك حتى ظاهروا الفرنسيين على تملك المغرب الاقصى واواسط افريقية وظاهروا الطليان على طرابلس والروس على فارس ، واتفقوا مع اعدائهم على المسلمين ولم يبق شيء الا فعلوا ، لا لطمس معالم الاسلام واتيان بيته من القواعد وكان باقيا عليهم الحجاز لم يفرعوا عذرته ولا رقوا ذروته فوجدوا طلبتهم ويا للاسف عند من كان اولى الناس بالمحافظة على الحجاز لكونه هو الذي استودعته اياه الدولة العلية وامدته لحفظه بالمال والرجال ولكوننا نحن آل البيت الموكول الينا صيانة هذا البيت ، ونحن الذين نزل في حقهم قوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا) وقد علم الناس كيف ان جدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما قد نزل

على الخلافة كلها حقنا لدماء المسلمين واشفاقا على هذا الدين ، فلا يكون منا الذي في ايامه تبسط دول النصارى ايديها الى الحجاز لاول مرة في الدهر ولا نكتب هذه السيئة العظمى في تاريخنا بعد ما سبق مواقفنا الكريمة امام هذه الملة (ولا يكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا) ولذلك ودرءا بالحسنة السيئة واقتداء بالسلف المجاهدين رحمهم الله ، عندما توجهت ارادة امير المؤمنين مولانا السلطان محمد الخامس لنا بامارة مكة وكان قد بلغ السيل الزبى واصبح الحجاز على شفا (؟) استخرت الله تعالى في قبول الامارة ، لا حبا بالامر والنهي وهذا الامر كما تعلمون هو من عتبتنا درج (؟) وهذا النور هو من افقنا انبلج ولكن اشفاقا على الحرمين الشريفين من لوث مداخلة الاعداء الذي ليس بعده لو تركوا وشانهم الا الدخول بالانفس والدوس بالاقدام ترابا بقي طاهرا اكثر من الف وثلاثماية عام ، وما كان لنا اذا قضى الله ورسوله امرا ان يكون لنا الخيرة من امرنا وتعين النهوض والجهاد ووجب ان نبسط لكم واقع الحال وان نصرح لكن بكون تواطئ الشريف حسين مع النصارى هو عبارة عن وضع الحرمين الشريفين تحت سلطتهم والعياذ بالله ، ولا يلدغ المؤمن من حجر مرتين فكيف تراه يلدغ مرارا ولا ينتبه وبيناه لكم لكي لا يغتر الضعفاء منكم بما يزينه بعضهم من الاباطيل وبما يتفننون به المساكين من اهل البادية من زخرف الاقاويل ولئلا يضطرنا بعض الجهلة الذين رانت العلالة عليهم ان نرهف فيهم حدا شهيرا بدعوة القرآن ودعوة السلطان ودعوة اجدادنا ذوي زيد الذين لهم امر الحجاز دون غيرهم من قديم الزمان ان تنفروا خفافا وثقالا لمقاتلة العساكر المنفذين من قبل النصارى الانكليز ومن تجرأ مظاهرتهم من البغاة الظالمين وان تكونوا عضدا للعساكر الشهانية الزاحفة من المدينة الى مكة ، تطهيرا لها من المارقين فمن يختلف عن اجابة داعي الله ورسوله فقد باء بغضب من الله ومن رأى الاجنبي قد بدأ بعد يده الى حرم الله وروضة رسوله وهو راض قاعد عن النصرة فقد اظهر برائته من رسول الله ومن تجرأ على مناصرة الاجانب اعداء الدين ومحالاتهم او مكاتبتهم او موافقة اي شقي شاق لعصا الطاعة فقد عرض نفسه لنكال الدنيا قبل عذاب الأخرة وانني احاشي اهالي هذه البقاع المقدسة من ان يوجد فيهم من يختار طاعة الشيطان على طاعة السلطان ومن يرضى بالكفر بعد الايمان وأربأ ببعض ابناء الوطن والاخوان في الدين عن ان يصيروا جزرا للسيوف التي عرفوا مواقعها من اعدائهم الانكليز والفرنسيين ، عندما حشدوا على جناق قلعة وجاوا اشد قوة وآثارا في الارض ورد الله الذين كفروا بغيظهم ولهم خيرا ولا شك عندنا في كون الله يحمي هذه البقاع التي فيها حرمة والروضة التي فيها خير من دفنت في القاع اعظمه ويوفقكم في هذا الجهاد الاقدس الى الضرب بالسهم الذي لكم فيه الحظوظ الوافرة والوجوه السافرة وحسنات الدنيا والأخرة وجاهدوا حتى تكون كلمة الله هي العليا ويكون لكم نظم حاشيتي الدين والدنيا ويبوء البغاة المتلاعبون بحرم الله المقدسة وحرماته بالذل والمهين والاجانب الذين قر استنصروهم بالخراب المبين وحتى تدخلوا

؟

لم يجد فيما هو ايسر لجائزة فاذا بالشريف حسين بن عون هو نفسه
يواطئ العدو على الحجاز و يحاول ان يجعل بيت الله الحرام و قبلة الاسلام
و مرقد الرسول عليه الصلاة و السلام تحت حماية دولة مسيحية
محاربة للدولة العلية بإذلة قصارى جهدها في اذلال جميع الملة
الاسلامية و جميع ما يموه به الشريف المشار اليه تبريرا لخروجه على الدولة
و تحريجا لقضية ضربة المسلمين بعضهم ببعض لا يفيده شيئا امام الله
الذي يعلم السرائر و امام رسول الله الذي شرعه مثل الشمس ظاهر.
ولا امام الامة الاسلامية التي تعلم الانكليز و ما يضمرون و ما مثله ومثلها
يدعيه الا كما قال الله تعالى (يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون).
ولن يقلب الشريف حسين حقيقة، ولن يخفي واقعا. و لن يقنع
احدا انه يقدر ان يكون اميرا مستقلا بنفسه و ان يخاصم الدولة
العثمانية فضلا عن ان يلي شؤون الاسلام و يدعي [و تزين له امانيه
وتخرجه من طاعة الدولة التي تحميه حتى] لنفسه الكفاية اللازمة
لحمايته فلا بد له اذا حتى يتمكن من مناصبة دولة عظيمة كالدولة
العثمانية من ان ينضوي تحت جناح دولة اجنبية عظيمة وهذا
ما فعله الان باتفاقه مع دولة انكلترة التي تخدعه و تزين له
امانيه وتخرجه من طاعة الدولة التي تحميه حتى اذا تمكنت من
الامر لا قدر الله كان مآله معها كمآل خديوي مصر و سلطان
زنجبار و امير لحج و امراء الهند و سائر الحكومات الاسلامية التي
وقعت في حبائل الانكليز ومن رأى العبرة في غيره فليعتبر وكان على
الشريف حسين قبل ان يجعل الضرغام صيدا لبازه ان يفكر بان انكلترة
لا يهمه بضمه الاكلي تحت ربقته وانها متى ادخلت اصبعها في الحجاز
لم تبرح تتمكن شيئا فشيئا حتى تستصفيه وتلحقه بغيره مما اخذته
اختلاسا فليسأل اولئك الامراء الذين تقدموه وليتصفح تلك
المعاهدات التي امضت انكلترة معهم ومع غيرهم ليعلم كيف صاروا بعد
الوجود الى العدم وكيف عادوا قارعين سن الندم و قد غالط الشريف
حسين في كونه لا يستطرق الحجاز لجنود مسيحية و انما تمده انكلترة بجنود
مسلمين فان الجند الذي يأتي من قبل الانكليز مسلمين كانوا او نصارى
فما داموا خادمين دولة مسيحية متطوعين في صفوفها متقلدين لسيوفها
يحاربون بامرها ايا كان حتى ابناء دينهم كما لا يخفى فلم يبق فرق بين المسلم

احدى صفحات بيان الشريف علي حيدر

المسجد الحرام قريبا ان شاء الله امنين محلقين رؤوسكم ومقصرين فلا يغرركم بغي اهل البغي وفساد اهل الفساد ولا يهولنكم تمردهم وتقلبهم في البلاد فان العاقبة للمتقين (ان الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الاذلين كتب الله لاغلبن انا ورسولي ان الله قوي عزيز) والله يكتبكم في خيرة جنده ويؤيدكم تعالى بنصر من عنده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الشريف علي حيدر

Signe: Cherif Ali Haidar **في شوال 10 / 1224**

Cachet (en turc): Emirat de la Mecque

العلاقات الحجازية - الفرنسية على ضوء
رسالة من شريف مكة واميرها الحسين بن علي
الى رئيس الجمهورية الفرنسية ريمون بوانكري *

اثرنا في الدراسة السابقة كل عناصر ملف الصراع العربي - الاتحادي الفكري والقومي والديني ومدى عمق التصدع الذي كان وراء القطيعة بين الفريقين ، وهو الشيء الذي قنن لكل واحد منهما ، استعمال كل الوسائل للإطاحة بخصمه . وقد سجل في هذا الظرف الدقيق اتفاق شمولي لزعماء الحركات القومية العربية على وضع ميثاق يتضمن الشروط الأساسية للقيام بالثورة ضد الاتحاديين بزعامة الشريف حسين واعلان استقلال البلاد العربية عن الدولة العثمانية (1) . وعليه قام الشريف حسين امير مكة والحجاز باعلان الثورة بتاريخ 10 جوان 1916 على الدولة العثمانية باسم جميع العرب الاسيويين من أجل تحقيق استقلال البلاد العربية (2) واعلان نفسه ملكا عليها (3) . وكان القصد الاساسي من ذلك هو العمل على إفشال مخطط الجهاد المقدس (4) الذي نادى بها الاتحاديون قصد اثارة الرأي العام الإسلامي (5) في كلا الامبراطوريتين الفرنسية والبريطانية

----

* كان ذلك قبل اثنتي عشر سنة عندما التقيت بالمرحوم محمد الصالح مزالي ، الوزير الاكبر في اواخر عهد الحماية الفرنسية على تونس ، وحيث كنت بحكم المجاورة ازوره من حين لاخر لاستزيد من معرفته الواسعة بالبلاد وبرجالاتها ، وبطبيعة النظام الإداري للحماية التي خبرها من موقع اعلى سلطة فيها . ولقد شدني ان المرحوم ثقافته الواسعة وذكائه الحاد ورؤيته القدرية للانسان وقبوله لمصيرته بكثير من الكرامة والسمو والنبل . وكان رحمه من حين لاخر يحدثني عن المصلح خير الدين وابنه الطاهر الذي كان كاتب سره ، عندما كان وزيرا للعدل ، وكيف آلت اليه كل وثائق المصلح الكبير ، وهي الوثائق الاصلية التي شرفني بايداعها لدي ، لتكون في مامن من الضياع ، وفاء منه لروح مصلحنا الكبير . على انه في احدى هذه الزيارات الودية ، سلمني المرحوم نسخة من رسالة من الشريف حسين بن علي ، امير مكة الى رئيس الجمهورية الفرنسية ريمون بوانكري وهي نسخة فتوغرافية ولم يمدني المرحوم باي معلومات عن كيفية حصوله عن الوثيقة ولا عن الظروف التي حفت بذلك . الا انه اثناء اجرائنا بعض التحريات في ارشيف الخارجية الفرنسية ، عثرنا على الرسالة الاصلية المحررة العربية ونص تعريبها الى اللغة الفرنسية من طرف الادارة الفرنسية . نعيد اليوم نشر هذه الرسالة مع تعليقنا عليها .

نشرت هذه الدراسة بادئ الامر في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، عدد 3-4 ، ص 41-48 . سبتمبر - زغوان 1991 .

(1) د. خيرية قاسمية : "الحكومة العربية في دمشق بين 1918 - 1920" ، ص 28 . مطبوعات دار المعارف ، القاهرة 1971 .

(2) سليمان موسى : "المنشور الاول للثورة العربية الكبرى وتوزيعه في شمال افريقيا" في المجلة التاريخية المغاربية ، عدد 7 - 8 ، ص 106 ، تونس 1977 .

(3) يوسف الحكيم ، سورية والعهد الفيصلي ، ص 13 ، منشورات دار النهار ، الطبعة الثانية ، بيروت ، 1980 .

(4) د. خيرية قاسمية ، نفس المصدر ، ص 30 .

(5) Charle Robert Ageron, Les Algériens Musulmans et la France, 1871-1919, t 2, pp. 1174-1175.

وهذا لعلمهم مسبقا ان سمعة فرنسا كانت سيئة جدا ، نتيجة سياستها القمعية في كل من تونس والجزائر والمغرب الاقصى ، خلافا لسمعة بريطانيا (6) . ولا شك ان المحادثات السرية التي اجراها الشريف حسين مع البريطانيين من خلال ما عرف بمحادثات الشريف حسين-مكماهن ، ترجمت عن مخطط سياسي ، بريطاني بادئ الأمر ثم بريطاني-فرنسي لاحتواء المنطقة العربية برمتها بعد ذلك ، وتشجيع المعارضة العربية ، كل المعارضة ، ضد الاتحاديين الذين انساقوا وايدوا المانيا . ونظرا للخبرة السياسية البريطانية بالمنطقة ، فقد نجحت تماما في جر القيادة العربية اليها في الحرب مقابل منحها وعودا بالاستقلال . وهذا ما جعل الزعامة العربية يومئذ ، تسعى الى كسب فرنسا الى جانب هذا المشروع الغائب-الحاضر في ذهن ومشاعر ووجدان العربي وهو المشروع المتمثل في الوحدة العربية (7) .

ولا شك ان فرنسا كانت تتابع باهتمام بالغ ودقيق المسرح السياسي الشامي خاصة والمشرقي عامة ؛ بل أنها بحكم هيمنتها على الجزء الغربي من العالم الاسلامي وطموحها المتزايد في احتواء بلاد الشام ، قامت بكل المساعي لاحتضان المعارضة الفكرية العربية ضد الاتراك ، وهي المعارضة التي نظمت مؤتمرين هامين بباريس ، ونشطت من خلال نشرها العديد من الصحف والكتب ، وهو الامر الذي أزعج كثيرا السلطات العثمانية يومئذ وجعلتها تتبنى كل المواقف لوأد الحركة العربية المعارضة . بل أن الدعاية الفرنسية كانت تعتبر العثمانيين مسلمين سيئين وهم قساة (8) ، وأنه وجب تأييد حقوق الشريف حسين الذي انتزع منه العثمانيون حقوق الخلافة الإسلامية الشريفة وتقديم الدعم واصباغ الصفة العربية على الثورة ، دون الإنسياق وراء دعم بروز تيار الخلافة الإسلامية في العرب انفسهم (9) . وهذا ما سيشكل خطرا لاستراتيجية أمن فرنسا في المغرب العربي برمته ، خاصة وأن الحاكم الفرنسي بالمغرب الإقصى المرشال ليوتي (Lyautey) ، كان قد تبنى منح مبدإ الخلافة الاسلامية لملك المغرب (10) .

ومن هذا المنطلق ، بدأت تتضح ملامح السياسة الفرنسية للعمل على جلب الرأي العام المغاربي للشريف حسين في ثورته ضد الاتحاديين ، وتأييد حركته الاستقلالية العربية من خلال اقتراح

----

(6) مصطفى طلاس ، الثورة العربية الكبرى ، ص 149 ، منشورات مؤسسة طلاس ، دمشق (بدون تاريخ) .

(7) كتبت عشرات الكتب ومئات الدراسات حول هذا الموضوع ولا سبيل الى استعراضها هنا .

(8) Gilbert Meynier, L'Algérie révéllée, La guerre de 1914-1918 et le premièr quart du XXe siècle, p. 536. Publications Librairie Droze Geneva, 1981.

(9) المصدر نفسه .

(10) المصدر نفسه ، ص 537 .

السلط البريطانية على الشريف حسين ، تعميم توزيع منشوره الأول للثورة ، على القيادات الدينية بالمغرب العربي وافريقيا الخاضعين للنفوذ الفرنسي . وقد وفرت السلط الفرنسية ثلاث قوائم بالشخصيات المرموقة (11) وحيث طلب المعتمد البريطاني ولسون بالحجاز ، من الشريف ارسال نسخ من منشوره : "الى زعماء شمال افريقيا" (12) وهو الطلب الذي تقدم به وطالب بتحقيقه الجنرال جلبرت كلايتون ، مدير الاستخبارات البريطانية بمصر ، باعتبار انه من غير المناسب ان تقوم حكومات مسيحية بتوزيع هذا المنشور الشريفي رسميا على الشخصيات الاسلامية المرموقة . ومع هذا فان القيادات الوطنية المغاربية على الرغم من عدم اطلاعها على خلفيات الملف المشرقي بكل تفاصيله ووقائعه الخطيرة ، فقداتخذت منه موقفا مبدئيا تمثل في معارضتها العمل على تصدع الجبهة الإسلامية ، وهذا ما جعلها تعارض موقف الشريف حسين بل اعتبرته طعنة في ظهر الدولةالعثمانية(13) .

ولتاكيدهذا التوجه السياسي الفرنسي ، قامت الحكومة الفرنسية بتوظيف موسم الحج لسنة 1916 ، عندما وجهت بعثة يديرها العقيد بريمن (Bremond) والقاضي الشريف وقد قام هذا الأخير بمقابلة الشريف حسين . ومن جهة اخرى كانت السلطة الفرنسية تسعى باقترا ح من ليوتي توفير حبس على شكل نزل بجدة يخصص للحجاج المغاربيين ، الهدف الحقيقي منه هو حسن مراقبة جميع الحجا ج الخاضعين للسلطة الفرنسية . وقد عهدت بهذه المهمة الدينية الى رئيس الوفد السيد عبد القادر بن غبريط ، احد الموظفين السامين بالجزائر وهو تابع للحكومة الشريفية المغربية . وقد ضم الوفد يومئذ 660 شخصية(14) .

وبالفعل حمل رئيس الوفد السيد عبد القادر بن غبريط رسالة باسم رئيس الجمهورية الفرنسية ريمون بوانكري الى الشريف حسين . وهي المناسبة التي اتيحت لأمير مكة والحجاز توظيفها لتحرير رد على رسالة رئيس الجمهورية الفرنسي بتاريخ 1916/12/14 ، ان الرد الذي ننشره

----

(11) سليمان موسى ، نفس المصدر ، ص 106 اثبت اسماء 49 شخصية .

(12) المصدر نفسه .

(13) Ali Mahjoubi, Les origines du Mouvement National en Tunisie, 1904-1934, pp. 195-196, Tunis, 1982.

راجع ايضا بالنسبة لموقف الجزائريين : Ageron, op.cit., 1871-1919, t. 2, pp. 1174-1175.

وحيث اثار المؤتمر السياسي التي قام بها الاتحاديون والالمان بالاستعانة بالمهاجرين المغاربيين ، على اثارة القلاقل والاضطرابات للفرنسيين واستمالة الرأي العام الإسلامي بالمغرب العربي الى جانبهم .

(14) Gilbert Meynier, op.cit., p. 539.

اعترضت الحكومة البريطانية على هذا العدد واعتبرته مخالفا لروح اتفاقية سايكس-بيكو التي تمنع مثل هذه التظاهرات من كلا الطرفين .

إسفل هذه الدراسة اذ هو يترجم عن اهم الثوابت السياسية التي كانت وراء تحرك الطرفين العربي والفرنسي على حد سواء . وقد استمرت نتيجة لذلك ، توارد الوفود المغاربية على الشريف حسين ، حيث استقبل هذا الاخير سنة 1917 ، وفدا من الحجيج ضم فقط هذه المرة 92 شخصية برئاسة مصطفى الشرشال (15) والتي حرصت فرنسا على ايفاده ، لتاكيد عطفها الظاهر للمطالب الشرعية باستقلال العرب وسعيها لتحقيق ذلك .

ان نص رسالة الشريف حسين الى رئيس الجمهورية الفرنسية من خلال قراءة معمقة يفيدنا في اكثر من موقع تاريخي :

- فقد القى الأضواء على الثوابت السياسية التي كانت تحرك الطرفين العربي والفرنسي . فالشريف حسين سعى الى كسب تأيد فرنسا اولا في انتفاضته ضد الاتحاديين ، وبالتالي ضد هيمنة الدولة العثمانية على مصيرية العرب . وثانيا على حرص الشريف حسين لتتويج حركته السياسية باعلان الدولة العربية المستقلة الكبرى ثم وعرضه التعاون مع فرنسا لاقامة علاقات سياسية ، ودية وتجارية معها .

- ان فرنسا كانت حريصة على توسيع وتثبيت قاعدة مؤيدها من النخبة الإسلامية الدينية والسياسية بالساحة ، ليس فقط المغاربية والإفريقية ، بل ايضا والمشرقية لتتمكن على اثرها في تحقيق احتوائها السياسي لبلاد الشام باقل الخسائر.

- أن الشريف حسين شأنه في ذلك شان بقية الزعماء العرب بالمشرق العربي ، سياسيين كانوا أم رجال فكر وأدب ، يجهلون تماما الأوضاع الحقيقية السيئة التي كان عليها المغرب العربي وعلى جميع المستويات ، وهذا نتيجة النظام القمعي الذي سلطته فرنسا على شعوبها . بل على العكس من ذلك ، ترجمت هذه الرسالة عن تقدير الشريف حسين : " لما قامت به فرنسا من المساعي المشكورة والأعمال المبرورة نحو الإسلام والمسلمين" (16) ، وان الوفد الاسلامي الذي ارسلته فرنسا ساهم في تبييض هذه الصورة بحمله : "أيات الثناء على حكومته الفخيمة وما لها من الايادي البيضاء على البلاد المغربية من جلب الخير لها ونشر لواء العدل في ربوعها ، وذلك مما ضاعف اعجابنا بتلك الامة الراقية النجيبة وحكومتها السامية المعظمة" (17).

- أن الشريف حسين اخبر في هذه الرسالة بأن العالم عبد القادر غبريط ، قد حظي بعناية

---

(15) وليد المعلم : سورية 1916 - 1946 . ص 67 . منشورات طلاس . دمشق 1988 .

راجع ايضا : G. Meynier, op.cit., p. 539

(16) راجع نص الرسالة اسفله .

(17) المصدر نفسه .

وعطفه وانه قدم له كل التسهيلات اللازمة للعثور على دار لإقامة الحجيج المغاربيين او كما جاء في رسالته بالحرف : "الدار المناسبة لفقراء حجاج المغربة" وأن الشريف يدعو فرنسا الى تقديم دعمها ومساعيها .. (الودية) "لتعضيد نهضتها المنبعثة من مبدإ الدفاع عن الحق والكيان الإسلامي .." (18) بل أن الشريف لا يشك لحظة في ان فرنسا ستكون من "خير الأعوان لهذه المملكة العربية الجديدة" وسوف تساعده ... في استخلاص سائر اقسام البلاد العربية التي لم تزل الى الآن تحت اشغال العدو المشترك .. وهي دعوة واضحة للعمل على توسيع قاعدة هذه الدولة العربية لتشمل جغرافيا ، سائر البلاد العربية المشرقة ، من بلاد الشام الى شبه الجزيرة العربية .

- أن الشريف حسين عبر عن مدى حرصه الشديد للتعاون المشترك مع فرنسا وأن مملكته الجديدة سوف تكون مع "حلفائها العظام" على طريق الود الدائم وتبادل المنافع المشتركة ، معربا عن الأمل ان يجعل "النصر حليفة جيوش حلفائنا المظفرين لتتأيد بهم المدنية والحقوق الانسانية" (19) . ان هذه الرسالة لم تفد الشريف حسين في قليل او كثير ، بل انها افادت السلطات الفرنسية بالمغرب العربي ، وحيث عملت على تعميم محتواها على القيادات الدينية الادارية على إختلاف مواقفهم وأماكنهم ، وهذا ما كان له من جهة اخرى ، أثره الواضح على ظهور تيار معارضة الشريف حسين في مخططه للقضاء على الدولة العثمانية .

* * *

تلك هي أهم الثوابت التي بدت لنا اهميتها من هذه الرسالة التي تنشر نصها العربي أسفله ، مؤملين ان نكون قد القينا بعض الاضواء على هذه الفترة الحرجة جدا من تاريخ العلاقات العربية-العثمانية والتي مازالت تحتاج الى تظافر جميع الجهود لدراستها دراسة علمية وموثقة .

---

(18) المصدر نفسه .

(19) المصدر نفسه .

رسالة من الحسين بن علي شريف مكة المكرّمة وأميرها
الى حضرة صاحب الحشمة المسيو ريمون بوانكرّي رئيس الجمهورية الفرنسويّة
حشمة الرّئيس المحترم والصديق العظيم

احمد اليكم الله ذا النعمة والطّول واصلّي واسلّم على انبيائه المصطفين الاخيار . أمّا بعد فاني اهديكم سلاما يعطّر الأرجاء واقرئكم تحيّة الصداقة والولاء على ما أبديتموه لهذا الجانب من المحبّة الثمينة عندنا والمودّة التي أوجبت شكرنا . وقد وصل الينا مرسومكم الكريم ، فاذكرنا للامة الفرنسويّة العظيمة في الحديث والقديم من المساعي المشكورة والأعمال المبرورة نحو الإسلام والمسلمين . وقد زادنا علما يقينا ما حمله الينا الوفد الاسلامي الفرنسوي المحترم من آيات الثناء على حكومته الفخيمة وما لها من الايادي البيضاء على البلاد المغربية في جلب الخير لها ونشر لواء العدل في ربوعها . وذلك مما ضاعف اعجابنا بتلك الأمة الراقية النجيبة وحكومتها السامية المعظمة. واننا بهذه المناسبة نثني على حضرة رئيس الوفد السيّد عبد القادر بن غبريط وزملائه النبلاء الثناء الحسن لما رأيناه فيهم من أيات الكمال وجليل الخصال حتى تمثلت لنا فيهم نياتكم الحسنة وخطتكم القومية . وقد قدّم لنا حضرة الرئيس المشار اليه جناب القوماندار الشريف ورفقاءه العسكريين فقابلناه بغاية التكريم والمودّة وأبقيناه لدينا وسنمنحه الرتبة والمقام اللائقين بجنابه . واننا بذلنا يد المعاونة لحضرة العالم الفاضل السيد عبد القادر رئيس الوفد المشار اليه في البحث عن الدار المناسبة لفقراء حجاج المغرب وبفضل الله تعالى تحصّل على ذلك بحسن سعيه وثبات حشمتكم . وان املنا وطيد باصالتكم وحسن مقاصد حكومتكم الجليلة بأنها ستبذل كلّ ما في وسعها من المساعي الوديّة لتعضيد نهضتها المنبعثة من مبدأ الدفاع عن الحقّ والكيان الإسلامي . ولا ريب عندنا في أنّ الجناب المحتشم والامّة الفرنسوية وحكومتها المبّجلة ستكون من خير الأعوان لهذه المملكة العربيّة الجديدة التي ستصادف بحكم الطبيعة العقبات التي لا تخفى على حشمتكم في سبيل استخلاص سائر اقسام البلاد العربية التي لم تزل الى الآن تحت أشغال العدوّ المشترك . وبالطبع ان هذه المملكة ستكون مع حلفائها العظام على طريق الودّ الدائم وتبادل المنافع المشتركة التي نؤمل من لطف الله تعالى استمرارها مدى الدهور بحسن مساعي أممها . هذا وقد شاهد وفدكم الكريم ما صادفه من الحجّاج في هذه السنة من الرّاحة والامن اثناء تاديهم فريضة الحج وان رجاءنا بالله تعالى عظيم ، في أن يسهّل لكافة المسلمين ما فيه الخير والسعادة بظلّ دولهم الفخيمة وذلك ما نؤمّله في عدالتهن وارتقائهن المدنيّ . وانّ في عزم حكومتنا وأمتنا بذل كلّ ما في الوسع واتخاذ كل ما يمكن من الوسائل لتسهيل طريق الحج وأسبابه لعامة المسلمين . واننا ولله المنّة قد أزلنا من عامنا هذا لحل الضرائر التي كانت تنال الحجّاج على اختلاف بلادهم واجناسهم .

كما أننا رفعنا ما كانت تجبيه منهم الحكومة السابقة من الضرائب الغير القانونية . وإننا بإرادة الله تعالى سنتوسل بكل ما يمكن لتأمين الصحّة العمومية واستمرار رفاهية عامة للمسلمين الذين يقصدون هذه الأنحاء المباركة . وأرجو الله سبحانه وتعالى في الختام أن يتولاّنا وإيّاكم بعين العناية ويجعل النصر حليف جيوش حلفائنا المظفرين لتتأيّد بهم المدنيّة والحقوق الإنسانية . كما أنّي أتمنّى لحشمة الرئيس المعظم دوام الصحة والسعادة ولحكومته الفخيمة وأمته النجيبة استمرار الرقي والنجاح في كلّ الأعمال آمين .

حرّر بمكة المكرّمة في 16 ذي الحجة عام 1334

شريف مكة المكرّمة وأميرها

حسين بن علي

من الحسين بن علي

شريف مكة المكرّمة وأميرها

إلى حضرة صاحب الحشمة المسيو ريمون پوانكاره

رئيس الجمهورية الفرنسوية

حشمة الرئيس المحترم والصديق العظيم

أحمد إليكم الله ذا النعمة والطول وأصلي وأسلم على أنبيائه المصطفين الأخيار . أمّا بعد فإني أهديكم سلاماً يعطر أرجاء ناديكم وتحية الصداقة والولاء على ما أبديتموه لهذا الجانب من المحبة الثمينة عندنا والمودة التي أوجبت شكرنا . وقد وصل إلينا مرسومكم الكريم فأذكرنا ما للأمة الفرنسوية العظيمة في الحديث والقديم من المساعي المشكورة والأعمال المبرورة نحو الإسلام والمسلمين . وقد زادنا به علماً ويقيناً ما حمله إلينا الوفد الإسلامي الفرنسوي المحترم من آيات الثناء على حكومته الفخيمة وما لها من الأيادي البيضاء على البلاد المغربية في جلب الخير لها ونشر لواء العدل في ربوعها . وذلك مما ضاعف إعجابنا بهذه الأمة الراقية النجيبة وحكومتها السامية المعظمة . وإنا بهذه المناسبة نثني على حضرة رئيس الوفد السيد عبد القادر بن غبريط وزملائه النبلاء الثناء الحسن لما رأيناه فيهم من آيات الكمال وحسن الخصال حتى تمثلت لنا فيهم نبالتكم الحسنة وخلقكم الكريمة . وقد تقدم من حضرة الرئيس المشار إليه جناب القومندان إبراهيم أفندي قاضي ورفقاؤه العسكريين فقابلناه بما يليق من التكريم والمودة والبشاشة لما لمسناه من الرقة ومكارم الأخلاق اللائقين بجنابه . وإنا نبدي السعادة لحضرة جناب الفاضل السيد عبد القادر رئيس الوفد

فيا بعث على إظهار ابتهاج [illegible] لقراء حجاج المغرب وبفضل الله تعالى تحصل على ذلك بحسن سعيه وثبات جنابكم . وإن كنا
نرجو [illegible] بحسن مساعدة حكومتكم الجليلة بأننا سنبذل كل ما في وسعنا من المساعي الودية لتوطيد [illegible] الشعبة عن
مبدأ الدفاع عن الحق والكيان الإسلامي . ولا ريب عندنا في أن [illegible] المحتشم والأمة الفرنسوية وحكومتها المبجلة ستكون
من خير الأعوان لهذه المملكة العربية الجديدة التي ستعارف بحكم الطبيعة العقبات التي تحتمل على جنابكم في سبيل تخلص
سائر أقسام البلاد العربية التي لم تزل إلى الآن تحت أشغال العدو المشترك . ومن الطبيعي أن هذه المملكة ستكون
بين حكومتي العظام على طريق الود الدائم وتبادل المنافع المشتركة التي نؤمل من لطف الله تعالى استمرارها مدى الدهور
بحسن مساعي الجميع . هذا وقد شاهد وفدكم الكريم ما صادفه الحجاج في هذه السنة من الراحة والأمن أثناء زيارتهم فريضة الحج
وإن رجائي بالله تعالى عظيم في أن يستحصل لكافة المسلمين ما فيه الخير والسعادة بظل دولتكم الفخيمة وإنشاء ما نؤمله في عهد النهضة
والارتقاء المدني . وإن في عزمنا وعزم حكومتنا أن نبذل كل ما في الوسع وأن نتخذ كل ما يمكن من الوسائل لتسهيل طرق [illegible]
لعامة المسلمين . وإني [illegible] هذا إلى العسر التي كانت تنال الحجاج على اختلاف بلادهم وأجناسهم . كما أنا
رفعنا ما كانت تجبيه منهم الحكومة السابقة من [illegible] غير القانونية . وإننا بإرادة الله تعالى سنتوسل بكل ما يمكن تأمين الصحة
العمومية واستمرار رفاهية عامة المسلمين الذين يقصدون هذه الأنحاء المباركة . وأرجو الله سبحانه وتعالى في الختام
أن يتوج أعمالكم [illegible] بعين العناية ويكلل بالنصر [illegible] جيوش حلفائنا المظفرين لتأييد بهم المدنية والحقوق الإنسانية
كما أني أتمنى لحضرة الرئيس المعظم دوام الصحة والسعادة وللحكومة الفخيمة وأمته النجيبة استمرار الرقي والنجاح في كل الأعمال

حرر بمكة المكرمة في ١٦ ذي الحجة عام ١٣٣٤

شريف مكة المكرمة وأميرها

رسالة من الشريف حسين بن علي الى ريمون بوانكري
رئيس الجمهورية الفرنسية

العرب والاتراك في اطار الدولة العثمانية

اعبر هنا عن عميق سروري لتحقيق هذا اللقاء بين المؤرخين الاتراك والعرب ، ذلك انه اذا كان عدد كبير من المختصين الغربيين في تاريخ الامبراطورية العثمانية ، قد أنشأوا عددا من الجمعيات التاريخية للعمل على دراسة القسم الاوروبي للدولة العثمانية ، فاننا من جهة اخرى نأسف لفقدان مثل هذه الجمعيات واللقاءات بين المؤرخين العرب والاتراك لدراسة تاريخ الولايات العربية خلال الفترة العثمانية . ما عدا بعض الاستثناءات ، حيث صرف المؤرخون المهتمون بالدولة العثمانية اهتمامهم لغير المنطقة العربية وان المؤرخين الاتراك لم يبدوا الا اهتماما متواضعا جدا لهذا الماضي العثماني للبلاد العربية .

بماذا يفسر هذا الوضع ؟ ان الاسباب كثيرة جدا ، ولا نستطيع هنا ان نطيل الحديث حول هذا الموضوع . غير اننا نلاحظ ان حاجز عدم الثقة والريبة كان قائما بين المؤرخين الاتراك والعرب، وأن عدم الثقة هاته ، كانت مبنية على عدد من الاحكام الحديثة والغير المبررة . فمثلا فترة الاتحاديين قد أدت بنا نحن العرب إلى الاساءة الى اربع قرون من تاريخنا ، في ظل النظام العثماني . وقد تميزت بالتعايش مع العثمانيين ، وأركز هنا على تسمية ذلك بالفترة العثمانية والعثمانيين ، وليس الفترة التركية والاتراك كما يذهب اليه معظم المؤرخين الاتراك اليوم ، ذلك ان كل الاجناس قد ساهمت في حياة الامبراطورية العثمانية . وعلى ضوء ذلك يعتبر كل تركي عثمانيا والعكس غير صحيح تاريخيا . وبالنتيجة فان التسمية "الفترة التركية" غير سليمة ولا هي صحيحة .

لقد تبنينا نحن العرب دون تمحيص او تدقيق نتائج البحث التاريخي الأوروبي عن الدولة العثمانية . وهل من مصلحتنا ان لا تخضع احكامنا لدراسات معمقة وبدون معرفة لبعض الفترات التاريخية ؟ لقد وجب تعديل نظرتنا وفقا لما يتوفر لدينا من معلومات جديدة . وانه اذا دققنا مليا في تاريخ الولايات العربية في اطار الدولة العثمانية ، نلاحظ ان عددا كبيرا من الولاة قد تجاوزوا حدود سلطتهم القانونية ليرتكبوا الفضائع وليمارسوا الظلم والقسوة تجاه الرعايا والأعيان وعلى الخصوص ضد اعدائهم السياسيين والعسكريين المناوئين لهم ، والذين يتربصون بهم الدوائر . غير انه من جهة اخرى وجب الاعتراف بأن الدولة العثمانية عرفت ايضا فترات اتسمت بالهدوء والأبهة والاشعاع العثماني . وهل يعقل ان نعتم على التاريخ العثماني في الولايات العربية طوال اربعة

---

(1) تعريب نص المحاضرة التي القيناها باللغة الفرنسية في المؤتمر العربي-التركي الاول والذي عقد بجامعة حجتبة بانقرة من 18 الى 22 جوان 1979 . وكان شعار المؤتمر : الاتراك والعرب : ماضيا وحاضرا ومستقبلا . وقد نشرت في اعمال المؤتمر بانقرة ثم في المجلة التاريخية المغربية ، عدد 91- 94 ، ص .

قرون نتيجة سياسة الاتحاديين خلال عشر سنوات من حكمهم وهم الذين اساءوا بحق الى البلاد العربية وذهبوا حتى الى تخطيط تتريكها ومسخ مقومات تراثها وحضارتها وكانت سياستهم وخيمة العواقب ليس فقط على البلاد العربية بل ايضا على الدولة العثمانية برمتها بتعزيزهم تفكيك اوصالها واثارة النعرة الوطنية لدى بقية الاجناس ، كما كانوا وراء تاليب الرأي العام عليهم في الداخل والخارج .

ان تاريخ الدولة العثمانية قد اتسم بعدم التزامه بقوانين جامدة ومقررة ، بل على العكس من ذلك ، سعى الى احتضان وتشجيع كل الاشخاص الاكفاء وسمح لكل الاجناس ان تشارك في حياة وبناء الدولة العثمانية ، وهذا ما يعني مدى المرونة والانفتاح اللذين اتسمت بهما الامبراطورية العثمانية ، في حين اتسمت امبراطوريات اخرى في نفس الفترة ، بالتعصب الاعمى وعدم التسامح والانغلاق الديني المقيت . وكمثال على ذلك ، لندرس الدفاتر المهمة التي واكبت خلفيات السياسة العثمانية طوال النصف الثاني من القرن السادس عشر، فسنلمس مدى وضوح السياسة العثمانية واهدافها ومراميها من خلال مختلف الفرامين الصادرة عن مركز الخلافة يومئذ وليس الأمر متوقفا على دراسة الاوامر الصادرة من الحكام المحليين والذين غالبا ما كانوا غير اتراك ، وكثيرا ما وصلوا خلال فترات الاختناق العثماني ، الى الحكم عن طريق القوة والعنف واللاشرعية . ومع هذا بماذا يفسر تولي عدد كبير من الشخصيات الغير التركية أعلى المناصب في الدولة طوال التاريخ العثماني برمته ؟ اليس مثال محمد علي ، والي مصر ، وهو الالباني وخير الدين التونسي ، وهو القوقازي المولد ، أدل الامثلة على ما نذهب اليه ؟ ومع هذا ، مازال عدد من المؤرخين العرب يتحدثون عن استعمار العثمانيين للبلاد العربية وتعسفهم ومجازرهم ! وهذه ، والحق يقال ، مواقف تتسم بعدم الاطلاع على طبيعة الحكم العثماني وآلياته واهدافه .

ومن جهة اخرى هل نطلق على الحكم العثماني بالبلاد العربية استعمارا او احتلالا؟ للاجابة على هذا السؤال وجب القيام بمقارنة بين النظام العثماني والأوروبي في البلاد العربية ودراسة طبيعة مخلفات الاستعمار الأوروبي ، ليتبين لنا الموقف السليم لذلك .

واذا كانت الامبراطورية العثمانية لها استراتيجية عسكرية بالمشرق وهي منطقة ذات اهمية خاصة بالنسبة لتامين الدفاع وحماية الامبراطورية ، فما هو نفع هذه الامبراطورية المباشر في المغرب العربي ؟ ان بعض الوثائق التي تمكننا من العثور عليها ، تؤكد ان المغاربة كانوا وراء دعوة السلطان العثماني وتدخله العسكري في المغرب لحمايتهم في فترة حرجة جدا في تاريخه ؛ وقد قدمت هذه المساعدة بسخاء . ومع هذا فان الدولة العثمانية مهما كانت مواقفنا تجاهها ، عرفت فترات اشعاع كان السلطان العثماني فيها يحس بمسؤولياته للدفاع عن كل مسلم ، بقطع النظر عن انتمائه للعائلة العثمانية أم لا ، كما ان حمايته شملت كل من طلبها .

ولم يكن للدولة العثمانية ، في اي فترة كانت من وجودها خلفية تخريبية للشعوب التي انضوت تحت حضارتهم ، الا انها قد فرضت نظام ضرائبها الثقيل ووجودها العسكري وما يتمتع به هذا الوجود من مخاطر ومساوئ كانت في بعض الاحيان والحق يقال قاسية جدا . ومع هذا فإن المقارنة بما حدث مثلا في امريكا اللاتينية نتيجة الاحتلال الاسباني الذي قضى نهائيا وبطريقة منهجية ومنظمة على الحضارات التي اينعت هناك ، وفرض باسم اله الحب والمحبة ، وبطرق الحديد والدم ، الدين المسيحي ! ما أبلغ اذن التسامح والاحترام الذي اظهره العثمانيون للشعوب المنضوية تحت لوائهم . والواقع ان سقوط الامبراطورية العثمانية وانكسارها راجع الى جزء كبير منه الى ذلك التسامح الذي مارسته طوال حياتها ، والامثلة قليلة جدا في التاريخ على مدى الكراهية وشعور الحسد التي تمتعت بها الامبراطورية العثمانية دون غيرها . ذلك انه منذ سقوط القسطنطينية ، لم يفتا الغرب يعمل على المس منها والقضاء عليها ، اذ وجود هذه الامبراطورية وحياتها يعد اهانة للغرب المسيحي في ذلك العصر ، وهذا الأخير لم يتعامل معها ، في عدد من الفترات ، الا لمصلحته.

ان العمل التقويضي تجاه الامبراطورية العثمانية كان عملا طويل النفس وفي غالب الاحيان شاقا ، وهذا بسبب ذلك التالق السريع والمذهل الذي عرفته الامبراطورية العثمانية بفضل عدد من الرجال الأكفاء حظيت بهم في الظرف المناسب . الا انه بعد ذلك بقليل ، وعندما فقدت تلك القوة والارادة الخلاقة المتجددة ، بدأت المساعي التخريبية المتغذية بذلك الحقد الديني الخفي والقوي ، والذي ما فتئ الغرب يمارسه ويشيعه ضد العثمانيين المسلمين . وحتما لا بد أن نعترف ان الحروب الصليبية لم تتوقف حيث الكتب المدرسية التاريخية الغربية ، والتي تعد انصهارا في اعماقها للذاتية الاوروبية ، وهذا ما يجعلنا نقر باستمرارها . وقد تواصل هذا العمل التخريبي بشكل واضح ، ويكفي دلالة على ذلك ، مدى الاشمئزاز والغطرسة والكبرياء التي تتسم بها مراسلات القناصل والسفراء الغربيين خلال القرن التاسع عشر ، لكل ما يتعلق بشؤون الامبراطورية العثمانية .

لقد وجب علينا نحن المؤرخين العرب ، ان لا ننسى ، انه على الرغم من مظالم وتجاوز سلطة الانكشاريين والولاة العثمانيين ، فان الطابع العربي-الاسلامي والعادات والتقاليد واللغة العربية والثقافة لم تمس او تحارب خلال الفترة العثمانية لتاريخ البلاد العربية برمتها (2) بل واكثر من ذلك ، وعلى الرغم من تنوع وتوالي حكم الدايات والبايات ، لم تكن هناك قطيعة فاصلة ولا حدود مغلقة بين المغرب والمشرق طوال كل الفترة العثمانية من تاريخنا .

----

(2) بطبيعة الحال وجب استثناء حكم الاتحاديين الذين اساءوا جدا الى العرب كما اشرنا الى ذلك قبل قليل وكانوا وراء هذه التصدمات الخطيرة التي اتسمت بها العلاقات العربية التركية في مرحلتها الاخيرة .

ليس كل ما أثرناه دفاعا أعمى عن العثمانيين أو مبالغة مني في تصوير "تاريخ الدولة العثمانية خلايا ابيض كالثلج" (3) ، غير انني اذهب الى الاعتقاد ان العمل الذي ينتظرنا نحن المؤرخين العرب والاتراك اليوم وغدا ، لمعرفة أدق للماضي العثماني المشترك ،عمل شاق وضخم .

لا بد ان ينفتح كل منا على الآخر ، اذ واجب المؤرخين الاتراك يتمثل في السعي الى التعريف بماضي الدولة العثمانية وابراز مميزاتها والتي هي مثار فخر لكل مؤرخ تركي اليوم . أما واجب المؤرخين العرب ، فيتمثل في العمل على دراسة هذا الماضي العثماني والذي هو ولا شك ، ليس قاتما كما يذهب بعضنا الى ذلك ، وأنه ليس من حقنا ان نتمادى في وصفه تاريخا مظلما مجهولا ، بل وجب علينا ، اتراكا وعربا ، أن نعمل معا ونتكاتف ، للقضاء بصورة تدريجية على الريبة وعدم الثقة التي تتسم بها كتاباتنا ومواقفنا ، وأنه اذا لم نعمل لخلق هذا التعاون العلمي المستند بشكل جذري وأساسي على ثراء وحيوية ما نملكه من وثائق هامة وخطيرة ما زالت نائمة في رفوف دورنا المتعددة والمبثوثة على كامل الرقعة العربية ولدى الافراد ، فضلا عن المكتبات العامة والخاصة ، فانه سيكون من الصعب ، ان لم يكن مستحيلا ، السعي الى كتابة تاريخ الولايات العربية اثناء الحكم العثماني لها .

ان تاريخ البلاد العربية اثناء الفترة العثمانية لبعض الفترات يحتاج الى اعادته تماما ، وأنه لا يحق لأي باحث ومؤرخ عربي او تركي ، مستقبلا ، أن يأخذ مسؤولية كتابة فترة معينة من تاريخنا او اصدار احكام دون ان يستنفذ ويأتي على كل الأدوات الضرورية لبحثه والمتمثلة على الخصوص في وثائق كل البلدان العربية والتركية على حد سواء . لندرس اذن نحن العرب اللغة التركية ، لتدرسوا انتم الاتراك ، اللغة العربية ، لنعمل على تنظيم لقاءات وموائد مستديرة بين المتخصصين للمواضيع المعلقة او الشائكة ، لنفتح المجال للروح المنهجية والنقاش الحر البعيد عن الخلفيات والاحقاد ، وبكلمة اخرى لنفتح صدورنا لتقبل النقد البناء واقرار الواقع التاريخي بمزيد من التجرد والنزاهة والموضوعية ، ولنتأكد جميعا ان نتائج ذلك ستكون هامة جدا لتأطير البحث التاريخي مستقبلا . كما أنها ستكون اكثر جدوى من اللقاءات التي تتم اليوم مع المتخصصين للقسم الاوروبي للدولة العثمانية .

لنشجع مؤرخينا وباحثينا ووثائقيينا الشباب اذن على السيطرة على اللغتين العربية والتركية قبل ان يفوت الأوان ، وواجب المؤرخين العرب والاتراك يحتم عليهم التعاون والذي سيؤدي بهم الى خدمة بعضهم البعض حتى نعمل جميعا على فهم وسبر تاريخنا العثماني المشترك الطويل .

---

(3) وردت هذه الجملة على لسان صديقنا المؤرخ سليمان موسى في جريدة الراي الاردنية بتاريخ 1979/7/12 . عندما استعرض العلاقات العربية - التركية من خلال اهم المحاور التي اثيرت في مؤتمر انقرة المذكور .

إشكاليات البحث التاريخي العربي عن الولايات العربية اثناء العهد العثماني *

ان اثارة موضوع تاريخ الولايات العربية خلال العهد العثماني واشكالياته ومستقبل كتابته العلمية ، معناه اثارة المميزات الخاصة للبحث التاريخي منذ خمسينات هذا القرن اي منذ حصول جل البلاد العربية على استقلالها السياسي . وفي مقال كنا قد نشرناه سابقا (1) ، حددنا اهم المراحل التي عرفها البحث التاريخي عن الولايات العربية اثناء العهد العثماني ، والتي تميزت جميعها نتيجة العوامل التالية :

اولا : انه لم يسجل اي حوار علمي بين الجامعيين العرب والاتراك قبل سنة 1979 ، ولا بين رجال الثقافة والآداب من كلا الطرفين . فكلاهما يجهل الآخر ويصر على ذلك . وهذا ما يبرر شعور اللامبالاة ، وفي بعض الاحيان شعور الكراهية التي ابداها كل منها للآخر . واذن كانت القطيعة كاملة وعلى جميع المستويات .

ثانيا : ان كتابات الجامعيين العرب قد اثّرت تاثيرا مباشرا على الصورة السلبية التي ظهرت فيها الامبراطورية العثمانية في جل الكتب المدرسية التاريخية في البلاد العربية (2) ، والعكس

---

* قدمت هذه الدراسة باللغة الفرنسية في المؤتمر العالمي الذي عقده مركز الدراسات والبحوث الدولية التابع لمركز البحث الوطني الفرنسي (C.N.R.S) باريس . وذلك في الفترة ما بين 29 و31 ماي 1991 حول موضوع : ديناميكية الشرق الاوسط الجديدة : علاقات البلاد العربية المشرقية وتركيا خلال سنة 1990 . واعيد نشرها بتصرف في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، عدد 3 و4 ، ص 23-30 . سيرمدي 1991 .

(1) د. عبد الجليل التميمي ، "واقع ومستقبل الدراسات التاريخية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني" ، في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، عدد 1 و2 ، ص 67-71 . سيرمدي - زغوان ، 1990 .

(2) Gordon, David C, History and Identity in Arab Text-Books: Four Cases, pp. 1-19, Princetion Near East Paper, Princetion, 1971.

- د. حبيب وداعة الحسناوي "الوطن العربي في ظل الحكم العثماني من خلال كتب التاريخ لمرحلة الدراسة الاعدادية بليبيا" في : Studies on Turkish-Arab Relations (S.O.T.A.R) ، عدد 2 ، ص 198-202 . استانبول ، 1987 ، منشورات مؤسسة وقف العلاقات التركية العربية استانبول .

- د. رفعت ابو الحاج "منطلقات نظرية في منهجية التاريخ الليبي اثناء القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر" في مجلة البحوث التاريخية ، عدد 1 ، ص 65-83 . منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي . طرابلس ، 1979 .

- د. علي المحافظة . "صورة الاتراك في الكتب المدرسية التاريخية بمعاهد التعليم العام بالاردن" في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، عدد 7-8 ، ص 351-356 . منشورات سيرمدي - زغوان 1993 .

- د. رشاد الامام "صورة الدولة العثمانية والاتراك في الكتاب المدرسي التونسي" في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، عدد 7-8 ص 29-62 . منشورات سيرمدي - زغوان - اكتوبر 1993 .

.../...

صحيح حيث نجد صورة العالم العربي في الكتب المدرسية التاريخية التركية سيئة جدا هي الأخرى (3).

ثالثا : انه منذ استقلال البلاد العربية بالمشرق ، كان للخطاب السياسي الذي تبناه الزعماء الوطنيون ، آثاره السلبية على جيل بأكمله من المثقفين والصحفيين العرب . ففي المقدمة التي حررها الرئيس جمال عبد الناصر لكتاب : **تركيا والسياسة العربية** ، كتب : "ان كل ما نلمسه حتى اليوم من العيوب في العرب افرادا وجماعات ، انما هو اثر من اثار الاستعمار العثماني (كذا) الذي جثم على صدورهم باثقاله البغيضة بضعة قرون . ان مصائب العرب اليوم قد تأتت من نتائج الاستعمار العثماني الذي دام قرونا (كذا)" او قولته الاخرى : "ان الاستعمار العثماني للبلاد العربية كان شرا وان نتائجه نلمسها اليوم على صعيد الشخصية والاخلاق والمشاعر" . وفي الميثاق صرح عبد الناصر عاليا : "ان الشعب المصري يرفض الاستعمار العثماني المقنع باسم الخلافة" (4) .

ومن جهة اخرى ، نسج وزير الدفاع السوري الحالي مصطفى طلاس على هذه الوتيرة معبرا عن مشاعره ضد الدولة العثمانية حيث اهدى كتابه : **الثورة العربية الكبرى** :

"الى الحسين بن علي الذي اطلق الرّصاصة الاولى في سماء مكّة معلنا راية الثورة العربية الكبرى ضدّ الاتراك الغزاة الذين دنسوا ترابنا الوطني باحتلالهم البغيض ، أقدم هذا الكتاب عسى ان تجد فيه روحه الطاهرة بعض الوفاء والعرفان بالجميل من بعد هذا المجهود الطويل" (5) .

ان هذه الحدة في الخطاب الايديولوجي لرجالات السياسة العرب ، قد تركت اثارها على الجزء الاكبر من المؤرخين والكتاب والصحفيين يومئذ ، وهو ما يبرر هذه الاحكام الاعتباطية والغير مدعمة توثيقيا التي غلبت على اكثرية الكتابات التاريخية عن الدولة العثمانية . فالامبراطورية العثمانية قد صورت على انها دولة مهيمنة ومخربة وولاتها كانوا حكاما بسطاء وبدون شخصية والنظام الاداري العثماني ، كان نظاما قمعيا ، اعتمد على الفساد واستغلال الشعوب من خلال الضرائب الغير شرعية ويكفي دلالة على ذلك ، حالة الفلاحين في البلاد العربية . اما المرأة العربية فقد فقدت دورها

.../... - د. اكمل الدين احسان اوغلو "قراءة لتاريخ الدولة العثمانية وعلاقاتها بالعالم العربي من خلال كتب التاريخ المدرسية المقررة في مصر خلال 1912-1980" في العدد 1 . Studies on Turkish Arab Relations . ص 85-118 . منشورات مؤسسة وقف العلاقات العربية-التركية . استانبول . 1986 .

(3) Karpat, Kemal "Images of Turks and Arabs in School Books" in, Studies on Turkish-Arab Relations, n.2, pp. 17-19, Istanbul, 1987.

(4) د. اكمل الدين احسان اوغلو . نفس المصدر .

(5) مصطفى طلاس . الثورة العربية الكبرى . ص 664 . منشورات مؤسسة طلاس . دمشق بدون تاريخ .

الفعلي في المجتمع ، والنظام العثماني لم يفعل شيئا لوقف تدهورها . كذلك انتشرت في الولايات العربية كل انواع الأوبئة (6) بل واضيف ايضا ان المؤسسات العلمية والاجتماعية والثقافية قد اصابها الوهن والجمود وان الحياة الفكرية قد خمدت تماما (7) ، وهذا ما نتج عنه انغلاق البلاد العربية عن نفسها ، الأمر الذي سهل معه التسرب الغربي في الولايات العربية واحتلالها فيما بعد . وانطلاقا من القرن التاسع عشر ، فقدت اللغة العربية مكانتها واشعاعها (8) وان الاتراك شكلوا طبقة عسكرية وارستقراطية ، استغلت الشعب العربي ونهبت ثرواته .

واذا كان الخطاب السياسي والصحفي لم يثر الا المظاهر السلبية للوجود العثماني في الولايات العربية ، فاننا من جهة اخرى نسجل في الكتب المدرسية التاريخية العربية بعض الاحكام الايجابية للحكم العثماني في الولايات العربية . من ذلك ان السلطة العثمانية في البلاد العربية قد اعادت الوحدة السياسية للعالم العربي وحافظت عليها خلال ثلاثة قرون ، على الرغم من الهجمات الاجنبية . وان هذه السلطة اوقفت التوسع الشيعي ، بل وان العرب كانوا يعتبرون الدولة العثمانية وخليفتها منهم واليهم ، وان العثمانيين دافعوا عن سلامة المغرب العربي ضد الهجمات الاسبانية خلال القرن السادس عشر . وازاء هذه المواقف المتناقضة والاحكام القطعية ، نتساءل عن سر ذلك؟ لماذا تعممت هذه الصورة القاتمة للدولة العثمانية في البلاد العربية المشرقية (9) بعيد استقلالها السياسي ؟ للاجابة عن هذا التساؤل ، نثبت هنا ثلاثة عوامل رئيسية ، تعتبر في رأينا جوهرية لشرح خلفية ذلك :

أولا : ان التاريخ المعاصر قد نقش في ذاكرة وضمير الشعب السوري خاصة والعربي عموما ، تلك الاحداث الاليمة التي هزت بعمق الطبقة النخبوية الوطنية نتيجة سياسة جمال باشا بولاية الشام والتي ارتكزت على العنف والتهجير للعائلات العربية نحو الأناضول ، وارسال الالاف من الشباب الى السجون بعد مصادرة املاكهم ثم ممارسة احتكار توزيع الأغذية واخيرا تنصيب اعواد المشانق لعدد من المثقفين والقياديين الوطنيين العرب مشارقة ومغاربة على حد سواء ببيروت ودمشق. وقد ولدت كل هذه العوامل رفضا تلقائيا للدولة العثمانية ، نجد اثاره ملموسة على جيل

----

(6) د. مي المحافظة . نفس المصدر .

(7) د. رفعت ابو الحاج . آراء عربية عن الانحطاط العثماني في القرن السابع عشر . في المجلة الفكرية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني . ج 1 و2 . ص 17-22 . منشورات سيرمدي -زغوان . 1990 .

(8) د. مي المحافظة . نفس المصدر .

(9) راجع الدراسة السابقة "العرب والاتراك في إطار الدولة العثمانية" . ص 89-92 .

كامل من الكتاب والسياسيين ورجال الفكر والمؤرخين وحتى الادباء ورجال الفن (10) .

ثانيا : ان مواقف تركيا السياسية في اهم القضايا والملفات العربية كان سلبيا عندما تبنت مواقف سياسية ضد العرب مثل موقفها من المسألة التونسية والجزائرية في مجلس الأمن عندما اعترضت عن استقلالهما ، والاعتراف بدولة اسرائيل والمشاركة في الحلف الاطلنطيكي في فترة قد اتسمت بقوة الحركة الوطنية العربية . كل هذه المواقف التركية قد اعطت لرجال السياسة العربية يومئذ ، احقية القيام بحملة اعلامية وصحفية ضد تركيا ، وبالتالي ضد الدولة العثمانية .

ثالثا : اما العامل الثالث فيتمثل في عدم رجوع المؤرخين العرب الى الأرشيفات التركية ومصادرها العديدة وهي المتعلقة بتاريخ الولايات العربية ، وهي الأرشيفات التي استحال الرجوع اليها قبل سنة 1960 . ونفس هذا الأمر بالنسبة لدور الأرشيفات العربية التي اهملت هي الاخرى . وهذا ما يبرر ان مجمل الدراسات التاريخية المتداولة في الساحة العربية قبل سنة 1960 ، كانت تلك التي ترجمت عن الدراسات الغربية او تلك التي وظفت الأرشيفات الفرنسية والإنقليزية دون سواها ، لكتابة تاريخ الولايات العربية اثناء العهد العثماني (11) .

لقد اثرت كل هذه العوامل مجتمعة لتبرز هذا الرفض العربي العام للتاريخ العثماني ، وكيف ان البلاد العربية كانت في يوم ما جزء منه . والذي زاد الوضعية سوء في هذا التعتيم ، انه لا توجد على صعيد البلاد العربية لقاءات بين المؤرخين العرب المختصين بالعهد العثماني فيما بينهم ، وحتى لو تمت ، وهي نادرة جدا في كثير من الاحيان على هامش تخصصات اخرى ، كان يثار جدال ونقاش حاد جدا حول هذا الموضوع ، استحال معه وجود ارضية تتحدد من خلالها منهجية البحث الهادئ والرصين لتأطير الكتابة عن تاريخ الولايات العربية اثناء العهد العثماني . ومع هذا ، لا بد ان نذكر هنا ببعض المؤرخين الرواد الذين عملوا على توجيه طلابهم الى توظيف المصادر العربية الجديدة ولاعادة تقويم وكتابة تاريخ الولايات العربية اثناء العهد العثماني ، امثال الاستاذ شفيق غربال من جامعة القاهرة والأستاذ عزت عبد الكريم من جامعة عين شمس وهما اللذان كان لهما الفضل الاكبر في تكوين العديد من المؤرخين المصريين المهتمين بالعهد العثماني وبروز مدرسة تاريخية مصرية وظفت المنهجية التاريخية في بحوثها ودراساتها واتسمت بالمنهجية والموضوعية .

----

(10) د. سعد ابو دية : "الفكر السياسي في قصائد الثورة العربية الكبرى" . في المجلة الفكرية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني . ع1 و2 . ص 24-44 .

(11) Abou el-Hadj, Rifat "Identité et histoire: leur utilisation sociale dans l'historiographie avec comme annexe; Delanoue, Gilbert" Identité et histoire: une lecture critique, in, Magreb-Machrek, N. 97, pp. 5-27, Paris, 1982.

وخلال سنة 1965 ، اتيحت لي الفرصة لأعمل في دور الأرشيفات باستانبول لأدرك مدى ثراء وقيمة الوثائق التركية عندما منحت لي رخصة للاطلاع عليها ، وهو الامرالذي كان وراء شديد ايماني بحتمية الحوار والتبادل المعرفي وخاصة بين المؤرخين الاتراك والعرب والمؤرخين الدوليين عامة . ان انشاءنا للمجلة التاريخية المغاربية منذ سنة 1974 ، وثانيا المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، كان الخطوة الاولى نحو تحقيق هذا الهدف . فهاتان المجلتان المتخصصتان واللتان تصدران عن مركز سيرمدي ، قد منحتا الدراسات العثمانية مكانة متميزة على الصعيد العربي والدولي . ذلك ان المجلة الاولى قد وفرت في مرحلة اولى لكل المتخصصين العرب والاتراك منبرا حرا للالتقاء والتحاور ثم لنشر الدراسات والبحوث العلمية بعد ذلك . وانطلاقا من ذلك سعينا في نطاق اشرافنا على العديد من الرسائل الجامعية في كلية العلوم الانسانية والاجتماعية لجامعة تونس الاولى، الى توظيف ارصدة الوثائق المحلية في جميع الرسائل التي نوقشت تحت اشرافنا. وفضلا عن ذلك اولينا في بحوثنا الشخصية عناية استثنائية لهذه الاشكالية التاريخية وان هذه المساعي قد توجت ببروز مدرسة تاريخية عربية واعدة . وانطلاقا من هذه المعطيات كان من اليسير يومئذ التخطيط لتنظيم المؤتمرات الدولية الدورية التالية ابتداء من سنة 1982 :

1 - الولايات العربية ومصادر وثائقها أثناء العهد العثماني (سبتمبر 1982) (12).

2 - الحياة الاقتصادية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني (سبتمبر 1984) .

3 - الحياة الاجتماعية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني (مارس 1986) .

4 - الحياة الفكرية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني (مارس 1988) .

5 - الحياة الادارية والاقليات والقوميات في الولايات العربية اثناء العهد العثماني (جانفي 1990) (13) .

6 - المدن والديمغرافيا والبحر الاحمر اثناء العهد العثماني (فيفري 1992).

---

(12) هذا المؤتمر هو الخامس الذي تنظمه اللجنة العالمية للدراسات ما قبل العهد العثماني والفترة العثمانية (C.I.E.P.O) .

(13) نشرت اعمال كل هذه المؤتمرات في خمسة عشر مجلدا بالعربية والفرنسية والانقليزية في نطاق منشورات سيرمدي .

7 - وضعية الدراسات العثمانية في العالم خلال الثلاثين سنة الماضية (في سبتمبر1994) .

وقد انشئت اللجنة العربية للدراسات العثمانية في سبتمبر 1982 ، ليتم التنسيق مع سيرمدي بتحقيق تنظيم هذه المؤتمرات العلمية العالمية . لقد سمحت هذه المؤتمرات للمتخصصين على اختلاف مشاربهم وايديولوجياتهم الفكرية والمذهبية ، ان يلتقوا ويتحاوروا ويشارك بعضهم البعض اكتشافاتهم وهمومهم البحثية وطموحاتهم العلمية وأخص بالتنويه هنا اهمية الحوار بين العرب والاتراك ، وحيث تبلور لديهما الإيمان العميق بتاطير كتابة تاريخ الولايات العربية اثناء العهد العثماني على ضوء ارصدة الوثائق الجديدة العثمانية منها والعربية والتي أمكن للمؤرخين اليوم الوصول اليها باقل صعوبة من ذي قبل .

ولا شك ان هذا الأمر سوف يؤثر على نوعية البحث التاريخي من حيث منهجيته وأكاديميته بعيدا عن التعتيم المقصود او الإطراء المضلل . على ان هناك مواضيع تاريخية حساسة ، كان من المستحيل على الأطراف جميعها ، تجنب الوقوع في فخ التيار العاطفي والقومي . الا انني استطيع او اؤكد دون مواربة ، انه لا يوجد اليوم مؤرخ عربي واحد لم يعد يعتقد ويؤمن بحتمية التبادل والتكامل العربي مع المؤرخين الاتراك ، وهذا ما يعد مكسبا هاما وجب الدفاع عنه وا لمحافظة عليه ضد تارجح الاحداث السياسية صعودا وهبوطا اليوم وغدا على الساحة السياسية المشرقية . من يدري ؟

وفي هذا الإطار ، لا بد ان نذكر انه يوجد اليوم جيل جديد من المؤرخين العرب الشبان الذين استوعبوا منهجية البحث التاريخي ، قد انصرف منذ عقدين من الزمن الى تنويع مصادر الوثائق المحلية والدولية لبحوثهم مثل : وثائق الاحباس والفتاوي ودفاتر ا لمحاكم الشرعية ودفاتر التسجيل والضرائب وارشيفات الزوايا وكذلك ارشيفات الخواص . وتكفي نظرة سريعة على الرسائل الجامعية التي نوقشت ببعض الجامعات العربية ، ليتاكد هذا الاتجاه الايجابي الواعد . على ان استعمال الوثائق التركية مازال محتشما جدا ، وتوسيع دائرة المستفيدين منه في المستقبل ، سوف يسمح لنا ولا شك بتاطير اكثر موضوعية لتاريخ الولايات العربية اثناء العهد العثماني . ومع هذا فان نتائج هذا التحول الموقفي ، يلمس اساسا في نوعية المنشورات والبحوث التي صدرت عن مركزنا او عن عدد من المراكز البحثية الاخرى (14) .

كذلك هناك عدد من المبادرات الجديدة قد تبنت لإنشاء وحدات بحثية او جمعيات او مراكز أهلية

---

(14) ان جزء هاما من هذه الدراسات العلمية قد نشر بالعربية أولا ثم بالفرنسية والإنقليزية .

او حكومية ، نذكر منها على الخصوص انشاءنا لسيرمدي بتونس (15) ولبنان (16) والموصل (17) والجزائر (18) وبمصر (19) . كما ان هناك عددا من الندوات واللقاءات تخصص اليوم عن الفترة العثمانية في البلاد العربية ، وحتى المغرب الاقصى الذي لم يخضع للادارة العثمانية من قريب او بعيد ، عقدت ندوة في شهر افريل 1992 بالتعاون بين كليتي الآداب بالرباط وفاس عن : **المغرب العربي اثناء العهد العثماني .**

ومن جهة اخرى ، فانه على الرغم من وجود عدد هام من الباحثين والمؤرخين ، الا انه لا توجد في البلاد العربية لجان بحث مشتركة تعمل بالتظافر مع بعضها البعض . كما لا توجد مراكز وطنية تسعى للتنسيق في هذا المجال . ذلك ان البحث العلمي ينجز وفقا للاهتمامات المحلية والاقليمية للمؤرخين ، وهذا ما يبرز مدى الاهتمام المفرط لدراسة كل اقليم او ولاية على حدة تبعا لخصوصياتها الادارية ومؤسساتها الخاصة ونظامها الاجتماعي والاقتصادي . اما الدراسات التاريخية المقارنة لكل الولايات العربية ، فما زالت تنتظر مؤرخيها . ومع هذا فان دراسة التاريخ الكمي بدا يجد انصارا له ليس فقط على اساس الاهتمام بالرعايا ، بل ايضا الاهتمام بدور العلماء والطبقة الارستقراطية الدينية او المهنية ودور الاقليات الغير مسلمة في الحياة الاقتصادية للولايات العربية . ويوجد اليوم توجه حاد لدى المؤرخين العرب والقاضي بتعدد دراسات مصادر المعلومات التاريخية والعمل على نشرها وتعميق مجالات البحث فيها وتوزيع اهتماماتها ليس فقط بالنسبة للقرن التاسع عشر الذي حظي باهتمام كبير ومبالغ فيه من طرف المؤرخين ، ولكن ايضا للقرون : السادس والسابع والثامن عشر ، وحيث تعتبر ارصدة معلوماتنا شبه ضعيفة ، ان لم تكن منعدمة في كثير من الاحيان، حول عدد من المسائل الهامة جدا . ونفس هؤلاء المؤرخين ، يسعون من منطلق علمي لدراسة كل صيغ السلطة العثمانية بالولايات العربية ووضع ذلك في اطاره الصحيح . وقد برز هذا التيار لدى معالجة موضوع الصراع العربي-العثماني واستعمال المصطلح التاريخي الموضوعي وابعاد النزعات الوطنية والقومية والعاطفية المشطة والتي اساءت في السابق الى غائية البحث التاريخي العربي منه والتركي على حد سواء . كما سعى هؤلاء المؤرخون الى دراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية والدينية للمجتمع العربي-الاسلامي . وقد ترجم هذا

----

(15) انشئ بمبادرة شخصية سنة 1985 .

(16) جمعية الدراسات العثمانية ببيروت قد انشئت سنة 1986 ويترأسها د. جوزيف ابو نهرا .

(17) مركز الدراسات التركية بجامعة الموصل . انشئ سنة 1988 ومديره د. جميل السيار .

(18) جمعية الدراسات العثمانية انشئت سنة 1989 من طرف د. مولاي بلحميسي .

(19) المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي . انشئ سنة 1990 ويديره د. محمد حرب .

النشاط التاريخي عن حيوية واهتمام جديد ومركز وواعد بالنسبة لمستقبل البحث التاريخي عن الولايات العربية .

ولاثراء هذه البحوث ، سعينا من جهتنا الى اقامة قواعد معلومات تاريخية عن الولايات العربية، نهدف من خلالها جمع المعلومات عن الدراسات والبحوث المنشورة منها والمخطوطة ، وبكل اللغات ، لوضع قواعد محددة وفقا للمواضيع التي حظيت بالدراسة ، وهذا في حدود امكانياتنا ووفقا لتعاون الزملاء معنا في هذا المجال . كما اننا نخطط لوضع دليل المؤرخين العرب المهتمين بالعهد العثماني، وحيث طالبنا الزملاء بتوفير كل البيانات عن المهتمين بالعهد العثماني ووضع قائمة رسائل الدكتورا والماجستير التي نوقشت او هي تحت الاعداد في الجامعات العربية . الا ان هذا العمل اعترضته العديد من العراقيل الفنية ، ونحن ساعون الى تذليلها .

وفي اطار هذا التقويم السريع لمجالات البحث العلمي عن العلاقات العربية-التركية ، لا بد ان نذكر انجازين اثنين على صعيد تركيا ، تمثل احدهما في مبادرة اخذتها عميدة جامعة حاجتبه بانقرة الدكتورة امال دغرماجي والتي نظمت انطلاقا من سنة 1979 لقاءات انقرة وطرابلس واليرموك واستانبول . وهذه اللقاءات على الرغم من اكتسابها طابعا غير رسمي ، الا ان نتائجها المباشرة على التطور العلمي بن تركيا والبلاد العربية ، كان محدودا ، ومع هذا فإنها عملت اساسا على مزيد التفاهم من بين المؤرخين العرب والاتراك .

اما المبادرة الثانية فتتعلق بانشاء مؤسسة وقف دراسات العلاقات العربية-التركية منذ سنة 1984 باستانبول ، وهي المؤسسة التي تنشر دورية سنوية بعنوان Studies on Turkish Arab Relations وقد صدر عددها السادس والاخير بهذه التسمية قبل ثلاث سنوات . وقد نظمت المؤسسة عدة ندوات ولقاءات بين المتخصصين العرب والاتراك في عدة مجالات اهمها التاريخ والاقتصاد . الا ان حرب الخليج قد اثّرت ولا شك على نشاطها وعلى اشكالية مجالات البحث لديها وعلى فلسفة انشائها، وهذا ما دفع بالجانب التركي الى تغيير اسم هذه المؤسسة من : مؤسسة وقف العلاقات العربية التركية الى : مؤسسة الشرق الاوسط ودول البلقان ، وهذا ما كان له الاثر السلبي جدا على المناخ العام العربي الذي اعتبر انشاء هذه المؤسسة في سنة 1984 ، وما حف ذلك من دعاية سياسية واعلامية كبيرة جدا ، صفحة جديدة في استراتيجية التحرك التركي تجاه البلاد العربية(20) .

---

(20) اجرينا حديثا مطولا مع معالي الوزير وحيد خلف اوغلو . وزير الخارجية التركية الاسبق والذي يعتبر المؤسس والراعي الاول لهذه المؤسسة . وقد عبرت لمعالي الوزير مؤخرا (في نوفمبر 1993 بيروت) من الاندهاش الذي ابداه الطرف العربي لتغيير اسم المؤسسة اولا ثم ادخال تحوير جذري على اهدافها واستراتيجية تحركها المستقبلي . وقد سعى معالي الوزير الى اقناعي بوجهة نظر الطرف التركي في هذا المسعى . الا اني اعترفت لمعاليه اني غير مقتنع تماما بكل الحجج التي أثارها ومازلت اعتبر تغيير استراتيجية واهداف هذه المؤسسة لا يخدم مستقبل العلاقات العربية - التركية !

لا ننسى في اطار هذا التقويم ان نذكر المجهودات النوعية والهامة التي انجزتها مراكز البحوث بأوروبا والولايات المتحدة الامريكية .

* * * *

اذهب الى الاعتقاد انه لمعرفة افضل وانصف للتاريخ العثماني بالولايات العربية ، وجب علينا جميعا تعزيز تيار التبادل والتكامل الذي برز هذه السنوات الاخيرة بين العالم العربي وتركيا والذي من شأنه ان يمكننا من أرضية موضوعية لتفاهم نوعي بين الطرفين ، وهذا في محاولة لتحويل الموروث التاريخي الضخم بين الامتين ، كعامل تجانس وتكامل لمستقبلهما الاقتصادي والثقافي والجيو-سياسي . وانه على الأمة العربية ان تدرك بوعي مطلق ، عظمة وأهمية تركيا اليوم وعلى الامة التركية ان تدرك هي الأخرى ، أهمية وعظمة العالم العربي ، وذلك هو مصيريتهما الجغرافية والتاريخية والثقافية والاقتصادية والسياسية .

كشاف أسماء الأعلام والمجموعات *

* تسهيلا لتوظيف وتاطير شبكة المعلومات المتوفرة ، سعينا إلى إقامة هذا الكشاف ، و وضعنا علامة (ت) إشارة لكل الإحالات في التعاليق .

كشاف الأماكن الجغرافية

القسم العربي للبيبليوغرافيا *

– د. أبو دية ، سعد ، "الفكرالسياسي في قصائد الثورة العربية الكبرى" في : الحياة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني ، ج 1 و 2 ، ص 23-44. منشورات سيرمدي–زغوان ، 1990 .

– د. أبو دية ، سعد و النعسه ، عبد المجيد مهدي ، مع الحسين بن علي : مبادئ ومواقف ، من خلال الوثائق المنشورة في صحيفة القبلة التي أصدرها المغفور له الحسين بن علي 1916-1924 ، 165 ص عمان ، 1991 .

– د. أبو الحاج ، رفعت ، "أراء عربية عن الإنحطاط في القرن السابع عشر" في : المجلة الفكرية في الولايات العربية أثناء العهد العثماني ، ج 1-2 ، ص 17-22 ، منشورات سيرمدي–زغوان ، 1990 .

– د. أبو الحاج ، رفعت ، "منطلقات نظرية في منهجية التاريخ الليبي اثناء القرن السادس عشر وحتى القرن التاسع عشر" في مجلة البحوث التاريخية ، عدد 1 ، ص 65-83 ، منشورات مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي ، طرابلس ، 1979 .

– أبي اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج 2 ، 476 ص ، طبعة ثانية ، القاهرة ، 1984 .

– د. احسان اوغلو ، اكمال الدين ، "قراءة لتاريخ الدولة العثمانية و علاقاتها بالعالم العربي من خلال كتب التاريخ المدرسية المقررة في مصر خلال 1912-1980 في : S.O.T.A.R. ، عدد 1 ، ص 101 .

– د. الإمام ، رشاد ، "صورة الدولة العثمانية و الأتراك في الكتاب المدرسي التونسي" في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، عدد 7-8 ، منشورات سيرمدي–زغوان ، 1993 .

– د. انالجيك ، خليل ، "سائقو الجمال العرب في اناظوليا في القرن الخامس عشر" في : الولايات العربية و مصادر وثائقها في العهد العثماني ، ج 3 ، ص ، 573 ، منشورات المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، 1984 .

– د. أوغلو ، خليل الساحل ، "من سجلات محاكم الشرع في بورصة : مقاربة في تركيا في آواخر القرن الخامس عشر و آوائل القرن السادس عشر" في المجلة التاريخية المغربية ،

---

* راجع أيضا القسم الأجنبي المكمل لهذه البيبليوغرافيا ، و المنشور في القسم الفرنسي ، ص 85-88 .

عدد 3 ، ص 47-50 .

- بارتلد ، ف ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ترجمة حمزة طاهر ، 160 ص ، مطبعة دار المعارف ، القاهرة ، 1983 .

- د. حاطوم ، نورالدين ، "دمشق في الحرب العالمية الأولى 1914-1918" في : بحوث ودراسات مهداة الى د. عبد الكريم غرايبية ، ص 394 ، عمان ، 1989 .

- د. حران ، تاج السر ، تطور الفكر القومي مالعربي خلال العلاقات العربية-التركية في الفترة 1908-1914 ، منشورات معهد البحوث و الدراسات العربية ، بغداد ، 1983 .

- د. حرب ، محمد ، العثمانيون في التاريخ والحضارة ، 456 ص ، منشورات دار القلم ، دمشق ، 1989 .

- د. الحسناوي ، حبيب وداعة ، "الوطن العربي في ظل الحكم العثماني من خلال كتب التاريخ لمرحلة الدراسة الاعدادية بليبيا" في .S.O.T.A.R ، عدد 1 ، ص 198-202 . استانبول 1987 و منشورات مؤسسة وقف العلاقات التركية العربية ، استانبول ، 1986 .

- د. الداقوقي ، ابراهيم ، "التاثير المتبادل بين اللغتين العربية والتركية في العهد العثماني" في : الحياة الإجتماعية في الولايات العربية ، ص 346 ، منشورات سيرمدي-زغوان ، 1988 .

- د. دغرامجي ، آمال ، "الجمهورية التركية و مكانة اللغة العربية" في .S.O.T.A.R ، عدد 1 ، ص 41 .

- د. الراشدي ، سالم ، محمد الفاتح ، 440 ص ، الطبعة الثانية ، بيروت ، 1969

- د. رامزو ، تركية الفتاة و ثورة 1908 ، ترجمة د. احمد صالح العلي ، 259 ص ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1960 .

- د. رمضان ، عبد العظيم ، "التاثير الحضاري للفتح العثماني في المشرق العربي" في : الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني ، ص 609 ، منشورات المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، 1984 .

- د. الروسان ، ممدوح عارف ، فلسطين في مراسلات حسين مكماهون -1939 115 ، قراءة جديدة في الوثائق و الدراسات المعاصرة ، استانبول ، 1990 .

- د. زين ، نور الدين ، نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية ، 234 ص ، منشورات دار النهار للنشر ، بيروت ، 1972 .

- د. الساحلي ، خليل ، "من سجلات محاكم الشرع في بوصة ، مقاربة في تركيا في أواخر القرن الخامس عشر واوائل القرن السادس عشر" في المجلة التاريخية المغربية ، عدد 2 ، ص 47-50 ، تونس ، 1975 .

- سعيد ، أمين ، أسرار الثورة العربية الكبرى وماساة الشريف حسين ، ص 59 ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت .

- د. السيار ، جميل ، حصار الموصل ... الصراع الإقليمي ، 288 ص ، الموصل ، 1990 .

- د. الشعبوني ، محمد ، موقف البلدان المغاربية من مسالة الخلافة 1926-1914 ، رسالة دكتورا نوقشت في صيف 1992 ، بكلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية لجامعة تونس .

- د. الشناوي ، عبد العزيز ، "دور الأزهر في الحفاظ على الطابع العربي لمصر ابان العصر العثماني" في : أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ، 677 ص ، منشورات مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، 1970 .

- د. الشناوي ، عبد العزيز ، الدولة العثمانية ، دولة اسلامية مفترى عليها ، ج 1 ، 688 ص ، القاهرة ، 1980.

- د. الصباغ ، ليلى ، الجاليات الاوربية في بلاد الشام في العهد العثماني ، ج 1 ، 532 ص ، منشورات مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1989 .

- د. الصفصافي ، أحمد المرسي ، "الدولة العثمانية و الولايات العربية" في : الولايات العربية و مصادر وثائقها في العهد العثماني ، ص 608 ، منشورات ، سيرمدي- زغوان.

- طلاس ، مصطفى ، الثورة العربية الكبري ، 664 ص ، منشورات مؤسسة طلاس ، دمشق .

- د. طوغ ، صالح ، "نظرة الى العلاقات التربوية التركية-العربية في : S.O.T.A.R. ، عدد 1 ، ص 312-313 .

- د. عاشور ، سعيد عبد الفتاح ، مصر و الشام في عصر الايوبيين المماليك ، 381 ص ، منشورات دار النهضة العربية ، القاهرة ، 1972 .

- د. عبد الرحمان عبد الرحيم ، عبد الرحيم ، الريف المصري ، من تقديم د. عزت عبد الكريم ، 313 ص ، منشورات جامعة عين شمس ، القاهرة ، 1974 .

- د. عبد الرحمان عبد الرحيم ، عبد الرحيم ، "دراسة عن ضوابط قانون نامة مصر و مدى تطبيقها مع النص الذي ترجمه د. خليل ساحلي أوغلو : الدراسة والنص" في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، عدد 1-2 ، ص 251-285 ، منشورات سيرمدي-زغوان ، 1990 .

- د. عماد عبد السلام ، رؤوف ، ، التاريخ و المؤرخون العراقيون في العهد العثماني ، 356 ص ، منشورات دار واسط للدراسات والنشرالتوزيع ، بغداد ، 1983 .

- د. عماد عبد السلام ، رؤوف ، ، الموصل في العهد العثماني : فترة الحكم المحلي 1139-1249 هـ ، 1726-1834 م ، 648 ص ، منشورات مطبعة الاداب ، بغداد ، 1975 .

- علوي ، حسن ، التاثيرات التركية في المشروع القومي العربي في العراق 180 ص ، منشورات دار الزوراء ، لندن ، 1988 .

- فوانمه ، هنادي يوسف ، المملكة الهاشمية الحجازية ، ص 33 ، منشورات دار الفكر للنشر و التوزيع ، عمان ، 1989 .

- د. قاسمية ، خيرية ، الحكومة العربية في دمشق بين 1918-1920 ، 318 ص ، منشورات دار المعارف بمصر ، القاهرة ، 1971 .

- قلعجي ، قدري ، الثورة العربية الكبير 1916-1924 ، 525 ص ، بيروت 1993 .

- د. كلشي ، حسن ، الوجه الأخر للإتحاد و الترقي ، ترجمة و تقديم د. محمد الارناؤوط ، 97 ص ، منشورات قدسية للنشر و التوزيع ، اربد ، 1990 .

- د. كوثراني ، وجيه ، السلطة و المجتمع و العمل السياسي من تاريخ الولايات العثمانية في بلاد الشام ، 235 ص ، منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 1988 .

- د. لويس ، برنار ، استانبول و حضارة الخلافة الإسلامية ، تعريب سعيد رضوان علي ، 235 ص ، الرياض ، 1982 .

- د. مؤنس ، حسين ، أطلس تاريخ الإسلام ، باب الدولة العثمانية ، 527 ص ، منشورات دار الكتب ، القاهرة ، 1987 .

- د. فؤاد متولي ، محمد ، الفتح العثماني للشام و مصر و مقدماته من واقع الوثائق و المصادر التركية و العربية المعاصرة ، 411 ص ، القاهرة ، 1976

- د. المحافظة ، علي ، "صورة الاتراك في الكتب المدرسية التاريخية بمعاهد التعليم العام بالأردن" في المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، عدد 7-8 ، منشورات سيرمدي-زغوان ، 1993 .

- د. منتران ، د. روبار ، "العلاقات بين القاهرة و الأستانة خلال العهد العثماني" في أبحاث ندوة القاهرة ، ص 674 .

- موسى ، سليمان ، "المنشور الاول للثورة العربية الكبرى و توزيعه في شمال افريقيا" ، في المجلة التاريخية المغربية ، عدد 7 - 8 . ص 106-111 ، منشورات سيرمدي-زغوان ، 1977 .

- موسى ، سليمان ، لورانس العرب ، وجهة نظر عربية ، الطبعة الثانية ، ص 75-74 ، منشورات وزارة الثقافة ، عمان ، 1922 .

- موسى ، سليمان ، الثورة العربية ، محاولة للفهم ، في : المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية ، ، عدد 7 و 8 ، ص 357-380 ، منشورات سيرمدي-زغوان ، 1993 .

- فريد بك ، محمد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د. حسان حقي ، 830 ص ، منشورات دار النفائس ، بيروت ، 1981 .

- ياسين ، حكمت ، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية ، 319 ص ، منشورات الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1981 .

- د. ياغي ، اسماعيل ، "التنظيمات القومية العربية في بلاد الشام 1876-1916" في : الحياة الإدارية و بروز الاقليات في الولايات العرية أثناء العهد العثماني ، ص 45 ، منشورات سيرمدي-زغوان ، 1992 .

منشورات المركز

تحت إشراف د. عبد الجليل التميمي

- المجلة التاريخية المغاربية ، صدر منها منذ إنشائها (1974) ، 72 عددا.

- د. عبد الجليل التميمي ، بايلك قسنطينة والحاج احمد باي 1830-1837 ، 303 ص + 24 اسماء، بالفرنسية تونس ، 1978.

- د. عبد الجليل التميمي ، موجز الدفاتر العربية والتركية بالجزائر، 116 ص، تونس ، 1979 (نفذ)

- د. عبد الجليل التميمي ، بحوث و وثائق في التاريخ المغربي ، الجزائر ، تونس و ليبيا (1816 - 1871) 208 ص ، الطبعة الثانية تونس ، 1980.

- دومينيك مونيي، القنصلية الانقليزية بتطوان اثناء تولي اوتوني هتفيد (1717 - 1728) 112 ص ، (بالفرنسية) تونس ، 1980.

- د. عبد الجليل التميمي ، وثيقة عن الاملاك المحبسة باسم الجامع الأعظم بمدينة الجزائر ، 92 ص ، (بالعربية و الفرنسية) ، تونس ، 1980.

- شانتال دو لافارون، مصادر فرنسية عن تاريخ المغرب الأقصى في القرن الثامن عشر (بالفرنسية) ج 2 128 ص ، تونس ، 1983.

- د. عبد الجليل التميمي ، الروابط الثقافية المتبادلة بين تونس و ليبيا ووسط و غرب إفريقيا خلال العصر الحديث ، 80 ص ، تونس ، 1981.

- د. عبد الرحيم عبد الرحمان عبد الرحيم ، المغاربة في مصر في العصر العثماني (1517 - ج 2 ، (بالعربية)، تونس، 1983.

- د. لويس كاردايك ، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون : المجابهة الجدلية ، تعريب د. عبد الجليل التميمي 196 ص ، الطبعة الثانية ، زغوان ، 1989.

- الولايات العربية و مصادر وثائقها في العهد العثماني ، مع إقامة فهارس لها ، ج 1 و 2 610 ص ، ج 3 ، 412 ص ، (بالفرنسية والانقليزية والعربية) ، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي ، تونس ، 1984.

- د. عبد الجليل التميمي ، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي ، الطبعة الثانية ، 256 ص ، (بالعربية) زغوان، 1985.

- الحياة الإقتصادية للولايات العربية و مصادر وثائقها في العهد العثماني ، 3 اجزاء ، 970 ص، جمع و تقديم د. عبد الجليل التميمي ، (بالعربية و الفرنسية والانقليزية) زغوان ، 1986.

- أعمال مؤتمر اللجنة العالمية للدراسات العثمانية المنعقد بكامبريدج سنة 1984، عن الولايات العربية في العهد العثماني، جمع وتقديم د. عبد الجليل التميمي، 183 ص، (بالانقليزية و الفرنسية) زغوان، 1986.

- د. ص. بوبكر ، ايالة تونس في القرن السابع عشر و علاقاتها الإقتصادية مع موانئ البحر الأبيض المتوسط : مرسيليا و ليفورنة (بالفرنسية) 224 ص ، زغوان ، 1988.

- الحياة الإجتماعية في الولايات العربية اثناء العهد العثماني 3 اجزاء ، 1068 ص ، جمع و تقديم د. عبد الجليل التميمي ، (بالعربية و الفرنسية والانقليزية) ، تونس ، 1988.

- شانتال دو لافارون ، مصادر فرنسية عن تاريخ المغرب الأقصى في القرن الثامن عشر 120 ص ، ج 3 ، (بالفرنسية) زغوان ، 1990.

- شانتال دو لافارون ، مصادر فرنسية عن تاريخ المغرب الأقصى في القرن الثامن عشر 120 ص ، ج 4 ، (بالفرنسية) زغوان ، 1993.

- د. عبد الجليل التميمي ، فهرس المجلة التاريخية المغربية من العدد 1 إلى 50 ، 402 ص ، (بالعربية والفرنسية) زغوان ، 1988.

- تطبيق الموريسكيين الأندلسيين للشعائر الإسلامية (1492 - 1609) (النص الإسباني و الفرنسي) جمع و تقديم د. عبد الجليل التميمي ، 200 ص زغوان ، 1989.

- د. بلقاسم الحناشي، الحركات التبشيرية في المغرب الأقصى خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، 224 ص ، تقديم د. عبد الجليل التميمي ، زغوان ، 1989.